Al-Daleel
مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies

Cognitive Linguistics and Its Representations in the Qur'an: Conceptual Metaphor as a Model

Yassine Ben Djabou
Assistant Professor of Islamic Philosophy, Al-Mustafa International University, Algeria.
E-mail: ybendjabou@gmail.com

Abstract

Cognitive linguistics is a relatively new academic field that emerged within the broader domain of cognitive sciences, which study the mind and its various processes. This field came to prominence through the works of linguists such as George Lakoff and Mark Johnson, who emphasized that language itself is a form of knowledge. They proposed approaches to language that prioritize its semantic function and focus on meaning, introducing interdisciplinary methodologies and diverse modes of inquiry that share certain characteristics under the umbrella of "cognitive linguistics". They also outlined a number of general conceptual frameworks considered central to this field, including conceptual metaphor, embodiment, mental spaces, and others.

In light of the value of modern methodologies in deepening our understanding of the Qur'an and expanding our religious knowledge, this article aims to analyze and critique this emerging field - cognitive linguistics - and to highlight one of its key models: conceptual metaphor, as represented in the Qur'anic text. We conclude that cognitive linguistics faces several challenges, most notably the need for precision in identifying overarching structures, and the importance of avoiding linguistic relativism and the idea that thought is determined by language, which could undermine the universality of these structures and of cognitive specialization as a whole. It is also crucial to maintain boundaries between academic disciplines and to be cautious about incorporating intuition into cognitive methodology, as this risks compromising the field's empirical foundations. Moreover, we illustrate how the Qur'an effectively employs conceptual metaphor to convey abstract, non – embodied meanings through embodied concepts.

Keywords: linguistics, cognitive linguistics, semantics, conceptual metaphor, Qur'an.

Al-Daleel, 2025, Vol. 7, No. 4, PP .50-83

Received: 10/03/2025; Accepted: 03/04/2025

Publisher: Al-Daleel Institution for Studies and Research

©the author(s)

مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقدية
Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
الدليل Al-Daleel

اللسانيات الإدراكية وتمثّلاتها في القرآن.. الاستعارة المفهومية نموذجًا

ياسين بن جابو

أستاذ مساعد في الفلسفة الإسلامية، جامعة المصطفى العالمية، الجزائر.

البريد الإلكتروني: ybendjabou@gmail.com

الخلاصة

اللسانيات الإدراكية هي حقل علمي جديد ظهر في إطار العلوم الإدراكية التي تقارب العقل وعملياته المختلفة، وقد برز هذا الحقل العلمي من خلال أعمال بعض اللسانيين كجورج لاكوف ومارك جونسون، من خلال تأكيدهما أنّ اللغة هي نفسها شكل من أشكال المعرفة، وقدّموا مقاربات للّغة من حيث وظيفتها الدلالية التي تهتمّ بالمعنى أكثر، واقترحوا مناهج متداخلةً وأشكال بحث مختلفةً تشترك في بعض السمات المختلفة تحت عنوان "اللسانيات الإدراكية"، ووضعوا لها بعض القوالب المفهومية العامّة التي يعدّونها مهمّةً لهذا العلم، من بينها: الاستعارة المفهومية، والتجسيد، والأفضية الذهنية وغيرها. وفي إطار الاستفادة من المناهج الحديثة بما يخدم فهمنا للقرآن وتوسيع معرفتنا الدينية، حرّرنا المقال الحاضر لتناول هذا الفرع العلمي الجديد (اللسانيات الإدراكية) بالتحليل والنقد، وإلقاء الضوء على تمثّل أحد نماذجه (الاستعارة المفهومية) في القرآن الكريم. وقد خلصنا إلى أنّ اللسانيات الإدراكية تواجه تحدّيات أهمّها ضرورة التدقيق في البحث عن الهياكل الكلّية، وتجنّب النسبية اللغوية وتأثّر الفكر باللغة، ممّا ينسف شمولية هذه الهياكل والتخصّص الإدراكي ككلٍّ. كما يجب رعاية الحدود بين التخصّصات، والحذر من إدخال الحدس في المنهج المعرفي، ممّا يُفقد هذا التخصّص أساسه التجريبي. كما بيّنّا كيف استفاد القرآن من الاستعارة المفهومية لتفهيم مفاهيم غير متجسّدة عن طريق معانٍ متجسّدة.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات، اللسانيات الإدراكية، علم الدلالة، الاستعارة المفهومية، القرآن.

مجلّة الدليل، 2025، السنة السابعة، العدد الرابع، ص. 50 ـ 83

استلام: 2025/03/10، القبول: 2025/04/03

الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث

© المؤلّف

CC BY NC

المقدّمة

لا يخفى ما للمناهج الحديثة من أهمّية ودور بالغ في دراسة المتون الدينية وخاصّةً القرآن الكريم، وتأثيرها الكبير في فهم معانيه والغور في أعماقه ومغازيه؛ لذا كان على الباحثين والدارسين في الفكر الإسلامي الانتباه لعدم إهمال هذه الفرصة، وضرورة الاطّلاع على هذه المناهج وإتقانها، وفحص مدى ملاءمتها للمباني الإسلامية والبحث في التراث الإسلامي، والاستفادة القصوى منها بما يخدم فهمنا للقرآن، وتوسيع معرفتنا الدينية، مع مراعاة ضوابط استخدامها وحدودها.

في هذا الإطار جاء البحث الحالي، ليسلّط الضوء على أحد أهمّ هذه المناهج والأدوات الحديثة، الذي شهدها القرن العشرين في خمسينياته، فقد ظهر حقل معرفي جديد أحدث ثورةً في طريقة فهم العلوم للعقل وطريقة عمله، وهو ما يطلق عليه عادةً "العلوم الإدراكية"، وقد شمل هذا الحقل علومًا مختلفةً، كعلم النفس وعلم الأعصاب وعلوم الحاسوب، ومن بينها كذلك اللسانيات. ففي أواخر سبعينيات القرن الماضي بدأت الملامح الأولى لظهور اللسانيات الإدراكية من خلال أعمال بعض اللسانيين كجورج لاكوف (George Lakoff) ومارك جونسون (Mark Johnson) و...، وكان منطلقهم في ابتكار هذا الحقل المعرفي عدم رضاهم عن الطريقة التي يتبّعها اللسانيون في دراستهم للّغة؛ إذ رأوا أنّ تركيز اللسانيات السائدة على البنية أكثر من المعنى هو إجحافٌ في حقّ علم اللغة وتكبيلٌ له. على إثر هذا اقترحوا في المقابل نهجًا ينظر للّغة على أنّها هي نفسها شكل من أشكال المعرفة، وقدّموا في هذا الإطار مجموعةً من النظريات والمقاربات التي تقارب اللغة من حيث وظيفتها الدلالية وتهتمّ بالمعنى أكثر من التركيب، واقترحوا مناهج متداخلةً وأشكال بحث مختلفةً تشترك في بعض السمات المختلفة تحت عنوان اللسانيات الإدراكية. وقد أحصى علماء اللسانيات الإدراكية بعض القوالب المفهومية العامّة التي يعدّونها مهمّة وتمثّل القاعدة الأساسية لهذا العلم، من بينها: الاستعارة المفهومية، والتجسيد، وفرضية الطراز، والأفضية الذهنية وغيرها.

يهدف هذا البحث إلى محاولة تبيين القواعد المهمّة وأساسيات اللسانيات الإدراكية، ودراسة ما إذا كان بالامكان استثمار هذا الحقل المعرفي وقوالبه المفهومية لفهم أفضل وأوسع وأدقّ للقرآن الكريم، ونبيّن ما حدود الاستفادة منه وضوابطها.

سنحاول من خلال دراسة تحليلية نقدية التطرّق إلى هذا الحقل المعرفي الجديد (اللسانيات الإدراكية) والانتقادات التي طالته فيما يتعلّق بشرعيته، لنجيب عن سؤال: ما مدى مشروعية اللسانيات الإدراكية كحقل علمي يقدّم الإضافة حول الوظيفة الادراكية؟ ثمّ نتطرّق بعد ذلك لبعض تمثّلات مفاهيمه المختلفة في القرآن الكريم، ونرى مدى تمثّل الاستعارة المفهومية في القرآن، وإلى أيّ مدًى يمكن أن تُسهم في الكشف عن الأبعاد الدلالية للقرآن؟ وبما أنّه لا يسعنا في مقالٍ أن نبحث كلّ جوانب هذا الحقل المعرفي وإسقاطاته على القرآن، فقد اخترنا أن نركّز على أحد القوالب المفهومية التي أحصاها اللغويون، وهي الاستعارة المفهومية، ونتطرّق لمدى تمثّلها في القرآن الكريم، وكيف يمكن استثمارها لفهمه، وما حدودها وضوابطها، وهذا لا يتمّ إلّا من خلال تحليل ألفاظ القرآن وعباراته ومفاهيمه بالرجوع إلى أهمّ التفاسير، ومقاربتها مقاربةً لسانيةً إدراكيةً.

المبحث الأوّل: مفردات البحث

أوّلًا: اللسانيات الإدراكية (Cognitive Linguistics)

اللسانيات الإدراكية هو مصطلح لفرع علمي مستجدّ يتقاطع فيه فرعان من العلوم أحدهما اللسانيات والآخر هو العلوم الإدراكية، وبناءً عليه لا يمكننا أن نتعرّف على معنى هذا الاصطلاح ونشوئه ما لم نتعرّف على هذين العلمين المشكّلين له؛ لهذا سنحاول أوّلًا تسليط الضوء بشكل إجمالي على حقلي اللسانيات والعلوم الإدراكية، لنخلص بعد ذلك إلى مفهوم المصطلح المنظور.

أ_ اللسانيات (Linguistics)

اللسانيات أو الألسنية أو علم اللغة أو اللغويات هي كلّها اصطلاحات تشير إلى حقل علمي اختباري بالدرجة الأولى يتناول الألسن واللغات، ويقوم اللساني بوصف ما يعرضُ الواقع عليه منها. [مارتان، مدخل لفهم اللسانيات، ص 23]

وهو علم ممنهج يقوم على الاستقراء والتجربة، يدرس جميع الحقائق اللغوية (جميع اللغات الإنسانية) القابلة للاختبار وبالمبادئ الثابتة، ويقنّن نتائجه في صور مجرّدة أو رموز جبرية رياضية. [أحمد مؤمن، اللسانيات.. النشأة والتطوّر، ص VI & VII]

إنّ الحديث عن اللسانيات الحديثة يجرّنا إلى الحديث عن أب هذا الحقل العلمي ومؤسّسه في العصر الحديث وهو فرديناند دوسوسير (Ferdinand de Saussure) (1857 ـ 1913)، الفيلسوف واللساني السويسري الذي وضع أسس هذا العلم وأرسى معالمه في مطلع القرن العشرين، عندما ألقى "محاضرات في اللسانيات العامّة" (Cours de linguistique générale)، والذي شبّه بالثورة الكوبرنيكية [روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ص 287]، ويعتقد هذا اللساني أنّ اللسانيات أو علم اللغة مرّ بمراحل ثلاث: في البداية كان اهتمام الإغريق منصبًّا على القواعد النحوية، وكيفية التمييز بين الصحيح وغيره من الصيغ، وكانت هذه الدراسة مرتكزةً على علم المنطق، ويعتقد دوسوسور أنّ هذه النظرة لم تكن علميةً، فهي دراسة معيارية تبتعد عن ملاحظة الحقائق وأنّ مجالها محدود وضيّق. ثمّ ظهر فقه اللغة (Philology)، وهو حركة علمية تهتمّ بتصحيح النصوص المكتوبة وشرحها والتعليق عليها معتمدين في ذلك على أسلوب النقد، وكان العلماء يقومون بمقارنة النصوص مع بعضها بهدف معرفة لغة كلّ نصّ من هذه النصوص وحلّ رموز بعض اللغات القديمة، إلّا أنّ ما يعيب هذا الحقل ـ حسب دوسوسير ـ هو أنّه يعتمد على اللغة المكتوبة اعتمادًا كلّيًّا، ويركّز أكثر على اللغتين اللاتينية واليونانية القديمة.

ثمّ ظهر بعد ذلك فقه اللغة المقارن (Comparative Philology)؛ إذ اكتشف العلماء أنّه يمكن مقايسة اللغات مع بعضها، على سبيل المثال قام جونز (W. Jones) (1794 ـ 1746) بمقارنة اللغات السنسكريتية والألمانية والإغريقية واللاتينية، وخلص إلى أنّها تنحدر من أصل واحد، إلّا أنّ عمله هذا كان معلوماتٍ مشتّتةً، حتّى أتى بوب (Franz Bopp) (1867 ـ 1791) ليؤسّس ويرسّخ الاعتقاد بأنّ مقارنة اللغات يمكن أن يشكّل أرضيةً لعلم جديد، ثمّ توالى العلماء اللغويون الذين طوّروا هذا الحقل وقدّموا إضافاتٍ كانت مفيدةً، ومع كلّ ما قدّمته مدرسة علم اللغة المقارن إلّا أنّها لم تنجح ـ حسب دوسوسير ـ في التأسيس لعلم لغة حقيقي؛ إذ إنّها أهملت البحث في طبيعة الموضوع الذي تدرسه وهو اللغة، إضافةً إلى أنّها اكتفت بالمقايسة دون الاهتمام بالجانب التاريخي لهذه المقايسة، الذي لا يمكن بدونه التوصّل إلى نتائج.

[انظر: دوسوسير، علم اللغة العامّ، ص 19 - 23]

وبعد أنّ حدّد دوسوسير الإشكالية التي كانت تعاني منها اللسانيات، ووجّه انتقاداتٍ لتصوّرات من سبقه من اللغويين المتقدّمين والمتأخّرين، خصوصًا في القرن التاسع عشر، الذين أهملوا الوظيفة التواصلية للّغة، شرع في وضع علم اللغة على السكّة الصحيحة؛ إذ أسّس لعلم اللغة الوصفي إلى جانب التاريخي، وتصبح وظيفة اللسانيات ـ حسب ديسوسير

ـ الدراسة الوصفية والتاريخية لجميع اللغات، والبحث عن كلّ القوى الموجودة في اللغات بشكل دائم وشمولي، واستخراج القوانين العامّة التي تختزل كلّ ظواهر التاريخ الخاصّة، وأن تحدّد نطاق اللسانيات وطبيعتها. [انظر: المصدر السابق، ص 20 و21]

ومن ابداعاته أنّه صاغ وأوضح وميّز بين بعدين أساسيين للدراسات اللغوية، وهما الدراسة التزامنية أو الوصفية (Synchronic)؛ إذ تعالج اللغات بوصفها أنظمة اتّصال تامّةً في ذاتها في أيّ زمن معيّن، والثاني هو الدراسة التعاقبية أو التاريخية (Diachronic) التي تعالج عوامل التغيير التي تخضع لها اللغات عبر الزمن، وميّز كذلك بين الكلام (Parole) واللغة (Langue)؛ فالكلام هو المعطيات التي نحصل عليها مباشرةً من خلال ما يصدر عن المتكلّم باعتباره فردًا في جماعة لغوية، أمّا اللغة فهي لغة المجتمع ككلٍّ، وهي ظاهرة قائمة وهي التي تشكّل موضوع اللسانيات، وقد يكون دوسوسير قد تأثّر هنا بنظرية دوركيم في علم الاجتماع التي يفرّق فيها بين الفرد والمجتمع ككيانين مستقلّين، أمّا الإبداع الثالث لدوسوسير فهو أنّه أوضح أنّ أيّ لغة يجب أن يتمّ تصوّرها ووصفها تزامنيًّا كنظام من العناصر المترابطة، المعجمية، والنحوية، والصوتية، وليس كمجموعة من الكيانات المكتفية ذاتيًّا، وهذا ما عبّر عنه بأنّ اللغة هي شكل وليس مادّةً، هذه العلاقات إمّا أن تكون في الحديث، بحيث تتألّف الكلمات بشكل خطّي (Syntagmatique)، وتأتي متعاقبة لتشكّل الكلام، وإمّا أن تكون هذه العلاقات خارج الحديث؛ إذ إنّ الكلمات التي تشترك في أمر ما ترتبط معًا في الذهن، مثل كلمة التعليم التي ترتبط في الذهن مع: علّم، معلّم، علم، وكذلك مع التربية والعمل، و...، وتشكّل شبكةً من العلاقات، ويطلق عليها العلاقات الترابطية (Associatifs).

هذا خلاصة لما يطلق عليه "المقاربة البنيوية للّغة" (Structuralism)، والتي تشكّل أساس اللسانيات الحديثة، والتي لا يخلو عمل أيّ لغوي من بعض آثارها مهما تنكّر لها.

[دوسوسير، علم اللغة العامّ، ص 170 و171 و141 - 144؛ روبنز، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ص 287 - 289]

وبهذا يمكن القول أنّ "محاضرات" دوسوسير نقلت اللسانيات نقلةً نوعيةً من الاقتصار على دراسة الألسن بما هي متنوّعة، إلى وظيفة أخرى أهمّ وهي دراسة حقيقة اللغة نفسها، انطلاقًا من البحث عن مشتركات الألسن، وبهذا يصبح البعد الذاتي للّغة متقدّمًا في اللسانيات الحديثة على أبعادها الأخرى التي تعدّ ثانويةً.

أمّا بعد دوسوسير فقد سلكت اللسانيات مساراتٍ عدّةً، فقد ظهر ما يعرف بـ"اللسانيات الصورية"، والتي عملت على صورنة القضايا اللسانية وتجريدها حتّى استغلقت مسائلها

ونضج مجالها، ثمّ اللسانيات الحاسوبية، والتي جعلت من البحث اللساني مجالًا علميًّا تتقاطع فيه عدد من الاختصاصات من علم الحاسوب والمنطق الرياضي وعلوم الأعصاب وعلم وظائف الأعضاء... إلخ، ثمّ ما أطلق عليه الجيل الرابع من اللسانيات، وهو ما يطلق عليها اصطلاحًا "اللسانيات الإدراكية" (Linguistics cognitive) [انظر: جعفر بابوش، اللسانيات المعرفية.. قراءة وتقويم في المنتوج المعرفي، مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية، المجلد الثاني، العدد الثاني، ص 34]، وهو ما سنسلّط عليه الضوء في قادم بحثنا.

ب ـ العلوم الإدراكية (Cognitive Sciences)

إلى غاية القرن التاسع عشر كانت دراسة الذهن والعقل من اختصاص الفلسفة، أمّا في القرن التاسع عشر الذي شهد تطوّر علم النفس التجريبي، فقد ابتكر فيلهلم وندت (Wilhelm Wundt) (1832 ـ 1920) وطلّابه نظرياتٍ مخبريةً لدراسة العمليات الذهنية بشكل أكثر تنظيمًا، وبعد بضعة عقود سيطرت السلوكية (Behaviorism) على علم النفس، هذه النظرية التي تنكر وجود الذهن عمليًّا، ووفقًا لعلمائها أمثال جون واطسون (John B. Watson) (1878 ـ 1958) يجب على علم النفس أن يقيّد نفسه بفحص العلاقة بين المنبّهات الملاحظة والاستجابات السلوكية التي يمكن ملاحظتها، وأصبح بهذا الحديث عن الوعي والتصوّرات العقلية غير مستساغٍ في المناقشات العلمية المحترمة، وسيطرت النزعة السلوكية على المشهد النفسي إلى غاية خمسينيات القرن الماضي، خاصّةً في أمريكا الشمالية. في هذه الفترة كانت أجهزة الحاسوب البدائية قد ظهرت منذ بضع سنوات فقط، وكان الذكاء الصناعي قد ابتكر من طرف جون مكارثي (John McCarthy) ومارفن مانسكي (Marvin Minsky) وغيرهما، وجاء جورج ميلر (George Miller) ليرفض الدراسات التي أظهرت أنّ قدرة التفكير البشري محدودة وأنّ ذاكرته قصيرة المدى، وقال إنّه يمكن التغلّب على قيود الذاكرة هذه عن طريق إعادة تشفير المعلومات إلى أجزاء، واقترح بعض الإجراءات الذهنية، ثمّ أتى نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) اللساني الأمريكي المشهور ليرفض الافتراضات السلوكية حول اللغة، وأنّه يمكن اكتسابها كعادة، واقترح أنّ اللغة لا بدّ أن تفهم من حيث إنّها قواعد نحوية ذهنية. كلّ هذه الأحداث كانت إعلانًا عن ثورة إدراكية كبيرة بدأ يعمّ المشهد الفكري بشكل كلّي، وعُدّ هؤلاء المفكّرون وغيرهم من روّاد هذه الثورة، وهو ما أسفر عن قيام حقل علمي جديد أطلق عليه "العلوم الإدراكية".

العلـوم الادراكيـة أو المعرفيـة أو العرفانيـة (Cognitive Sciences) هـو تخصّـص يهـدف إلى دراسـة العقـل والذكاء مـن وجهـة نظـر تخصّصـات مختلفة، كالفلسـفة وعلـم النفـس والذكاء الاصطنـاعي وعلم الأعصـاب واللسـانيات والأنثروبولوجيـا و...، وقـد بـرزت أفكارهـا الأولى في منتصف خمسـينيات القرن المـاضي، عندمـا بـدأ باحثـون في مجـالات متعـدّدة في تطويـر نظريـات للذهـن قائمـة على التوضيحـات المعقّـدة والإجـراءات الحسـابية، أمّـا أصولهـا التنظيميـة والتأسيسـية كفـرع علـمي قائـم بذاتـه فـهي راجعـة إلى منتصـف السـبعينيات مـن القرن المـاضي، عندما شُـكّلت جمعيـة العلـوم الإدراكيـة وبدأت مجلّـة العلـوم الإدراكيـة في الصـدور، ومنـذ ذلـك الحـين، أنشـأت الكثـير مـن الجامعـات في أمريـكا الشـمالية وأوروبّـا وآسـيا وأسـتراليا برامـج للعلـوم الإدراكيـة، بالاضافـة إلى دورات في هـذه العلـوم.

[Look: Paul Thagard, The Cognitive Science of Science: Explanation, Discovery, p. 4 - 5; Mind: Introduction to Cognitive Sciences, preface, p. 5 - 6]

ومـع أنّ العلـوم الإدراكيـة تشـترك في مجموعـة مـن أفـكار نظريـة، لكـنّ وجهـات نظـر وأسـاليب الباحثـين تختلـف باختـلاف مجالاتهـم في دراسـة العقـل والذكاء، مثـلًا علمـاء النفـس المعرفيـين بالإضافـة إلى أنّهـم غالبًـا مـا ينخرطـون اليـوم في التنظـير والنمذجـة الحاسـوبية، فـإنّ طريقتهـم الأساسـية هي إجـراء تجـارب على متطوّعـين مـن مختلـف الأجنـاس والثقافـات؛ لذلـك فـإنّ التجـارب النفسـية الـتي تقـارب العمليـات العقليـة ـ كالفهـم والتفكـير والقصـد والحافظـة والتخيّـل والاسـتنتاج ـ مـن أصنـاف متنوّعـة ضروريـةٌ لعلـم الإدراك ليكـون علمًـا.

ولأنّ التجربـة والنظريـة لا يمكـن أن ينفصـلا؛ كان لا بـدّ أن تكـون التجـارب النفسـية قابلـةً للتفسـير ضمـن إطـار نظـري يفـترض التمثيـلات والإجـراءات العقليـة، وكانـت أفضـل طريقـة لإنشـاء هـذه الأطـر النظريـة هي اختبـار نمـاذج حسـابيةً تكـون مماثلـةً للعمليـات العقليـة، فـكان الذكاء الاصطنـاعي أفضـل مجـالٍ لتجسـيد العمليـات الذهنيـة على غـرار التفكـير الاسـتنتاجي، وتكويـن المفهـوم، والتصـوّر الذهـني، وحـلّ المشـكلات التناظريـة، فالنمـاذج الحسـابية والتجارب النفسـية تسـير جنبًـا إلى جنـب، لكـنّ الذكاء الاصطنـاعي تمكـن في الكثـير مـن الأحيـان مـن إجـراء اختبـارات مختلفـة لتمثيـل المعرفـة في عزلـة نسـبيًا عـن علـم النفـس التجريـبي، وهـذا الاتّجـاه هـو مـا يطلـق عليـه "الذكاء الاصطنـاعي الإدراكي" (Cognitive AI).

[Look, Paul Thagard, The Cognitive Science of Science: Explanation, Discovery, p 6 - 7]

وبينمـا يقـوم بعـض اللسـانيين بإجـراء تجـارب نفسـية أو تطويـر النمـاذج الحسـابية، فـإنّ الكثـير منهـم يسـتخدم حاليًـا نهجًـا مختلفًـا عـن التقليـد التشومسـكي الذي يعتمـد على تحديـد

المبادئ النحوية التي توفّر البنية الأساسية للّغات البشرية، وملاحظة الفروق الدقيقة بين ما هو نحوي وما ليس نحويًّا من التعابير، هذا النهج البديل يركّز بشكل أقلّ على بناء الجملة وأكثر على الدلالات والمفاهيم وهو اللسانيات الإدراكية.

ويقوم علماء الأعصاب بإجراء تجارب مضبوطة، إلّا أنّهم يهتمّون بشكل مباشر بطبيعة الدماغ؛ إذ يقوم الباحثون باستخدام أجهزة المسح المغناطيسي والبوزيتروني (magnetic and positronic scanning) لمراقبة ما يحدث في أجزاء مختلفة من الدماغ أثناء قيام الأشخاص بمختلف الوظائف العقلية، فتمكّنوا مثلًا من التعرّف على مناطق في الدماغ مهمّتها التصوير الذهني وتفسير الكلمات، كما يقومون بمراقبة عمل أدمغة الأشخاص التي تضرّرت بشكل ما، وتوصّلوا إلى أنّ السكتة الدماغية مثلًا يمكن أن تنتج عيوبًا في الجزء المخصّص للّغة من الدماغ، كعدم القدرة على نطق الجمل، وبالاضافة إلى هذا فهو يستند كذلك إلى الجانب النظري، وينشئ نماذج حسابيةً لسلوك الخلايا العصبية.

أمّا الأنثروبولوجيا الإدراكية فهي تفحص التفكير البشري للنظر في كيفية عمله في بيئات ثقافية مختلفة، وتأخذ في الاعتبار الاختلافات المحتملة في أنماط التفكير عبر الثقافات، فالحاجة إلى ملاحظة العمليات العقلية في بيئات مادّية واجتماعية مخصوصة صار أمرًا مستوعبًا بالكامل في العلم المعرفي، وهذا ما جعل علماء الأنثروبولوجيا الثقافية مثلًا، يستندون إلى الإثنوغرافيا بوصفها منهجًا رئيسيًّا، والتي تتطلّب العيش والتفاعل مع أعضاء ثقافة ما إلى أن تتّضح لديهم أنظمتهم الاجتماعية والإدراكية، مثلًا قام علماء الأنثروبولوجيا الإدراكية بالبحث في أوجه التشابه والاختلاف عبر الثقافات في الكلمات الخاصّة بالألوان.

كذلك الفلسفة تأتي في رأس اهتمامات العلم المعرفي؛ لأنّها تعالج أهمّ القضايا حول المنهج التجريبي والحاسوبي للعقل، وتتعامل الفلسفة أيضًا مع الأسئلة العامّة مثل العلاقة بين العقل والجسد والأسئلة المنهجية مثل طبيعة التفسيرات الموجودة في العلوم الإدراكية، وبالإضافة إلى ذلك، فهي تهتمّ بالأسئلة المعيارية حول الكيفية التي يجب أن يفكّر بها الناس، وكذلك كيف يجب أن يكون أداؤهم. إلى جانب الهدف النظري لفهم التفكير البشري، يمكن أن يكون للعلم المعرفي هدف عملي يتمثّل في تحسينه، وهذا من خلال انعكاس ما يجب أن يكون عليه التفكير.

[see: Paul Thagard, Mind: Introduction to Cognitive Sciences, preface, p. 8 - 10]

إذن يمكن القول إنّ أضعف شكل للعلوم الإدراكية هو تداخل المجالات المذكورة واشتراكها في البحث حول طبيعة العقل وكيفية عمل التفكير البشري، وتزداد أهمّيتها من خلال استخدام طرق متعدّدة والتقاء الجانب النظري في هذا الصدد، كما تمّت الإشارة إليه بإيجاز فيما سبق.

ويرى فاريلا (Francisco Varela) أنّ العلوم الإدراكية تجاوزت الحدود التقليدية للعلوم التي كانت تحتكر البحث عن المعرفة كعلم النفس ونظرية المعرفة، ونجحت في التنقيب عن المعرفة في حدّ ذاتها وعلى جميع مستوياتها.

[Look: VARELA, Francsico, Invitation aux sciences cognitives, p. 10 - 11]

ويضيف هودي (Olivier Houdé) أنّ العلوم الإدراكية تفرض نفسها اليوم بوصفها حقلًا جديدًا من المعرفة، يحاول من خلال التجريب والنمذجة واستخدام التقنيات المتقدّمة، تفسير لغز العقل وعلاقاته بالمادّة (الدماغ، والجسم، والحاسوب).

[HOUDÉ, Olivier, Dictionary of cognitive science, tras. By Vivian Waltz, p 1]

أمّا ما يهمّنا فعلًا في هذا البحث هو الجانب اللساني في العلوم الإدراكية، وهو ما سنسلّط عليه الضوء في ما يلي من بحثنا.

جـ ـ اللسانيات الإدراكية (Cognitive Linguistics)

كما ذكرنا سابقًا فإنّ اللسانيات الإدراكية جاءت في سياق ثورة العلوم الإدراكية، وجاءت بوصفها ردّة فعل على بعض الآراء حول اللغة، ولعلّ القضيّة الأساسية التي يعالجها هذا الحقل المعرفي هي "علاقة اللغة بالفكر"، ويسعى للإجابة على أسئلة مثل: كيف يمكن أن ننطلق من البنى اللغوية لمعرفة بنية ذهن الإنسان وطريقة تفكيره؟ ومن جهة أخرى: كيف يقوم ذهن الإنسان بإنتاج اللغة والبنى اللغوية، وكيف يساهم في اكتسابها أيضًا؟

وللتوضيح أكثر يجدر تسليط الضوء على الابهام الأساسي والمركزي الذي يحوم حول اللسانيات الإدراكية وهو الجانب المعرفي فيها؛ فبأيّ معيار يمكن اعتبار اللسانيات الإدراكية مقاربةً إدراكيةً لدراسة اللغة؟

ينظر اللسانيون إلى اللسانيات الإدراكية من حيثيتين: حيثية أعمّ (cognitive linguistics) (تكتب بالحروف الإنجليزية الصغيرة)، وهي تشمل أيّ مقاربة أو نهج ينظر للّغة الطبيعية

بوصفها ظاهرةً ذهنيةً، وفي هذا الإطار يمكن عدّ النحو التوليدي (Generative Grammar) جزءًا من هذا التخصّص الأوسع في اللسانيات، فالنحو التوليدي كان منعطفًا معرفيًّا مهمًّا في علم اللغة، وجاء بوصفه منهجًا يعارض النظرية السلوكية التي ظهرت في خمسينيات القرن الماضي ويرفضها، أمّا اللسانيات الإدراكية بالمعنى الأخصّ (Cognitive Linguistics) (تكتب بالحروف الإنجليزية الكبيرة) فهو حقل علمي يتفرّع من اللغويات الإدراكية بالمعنى الأعمّ السابق الذكر، وقد ظهر لمواجهة النحو التوليدي وبعض بحوث اللغة الأخرى في إطار العلوم الإدراكية.

[see: Dirk Geeraerts, Cognitive Linguistics – Basic Readings, p 3]

واللسانيات الإدراكية بالمعنى الأخصّ هي منهج لتحليل اللغة الطبيعية، ودراسة للّغة من حيث وظيفتها الإدراكية، نشأ هذا الحقل في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات في أعمال جورج لاكوف (George Lakoff) ومارك جونسون (Mark Johnson) ورونالد لانغاكر (Ronald Langacker) و...، ويركّز على اللغة بوصفها أداةً لتنظيم المعلومات معالجتها ونقلها، ويركّز على الدور الحاسم للبنى المعلوماتية الوسيطة التي تنشأ عند مواجهتنا للعالم. وهي مجموعة منظّمة من المقولات ذات المغزى التي تساعدنا في التعامل مع التجارب الجديدة وتخزين المعلومات حول التجارب القديمة؛ لهذا فإنّ لتحليل الأساس المفهومي والتجريبي للمقولات اللغوية أهمّيةً أساسيةً في اللسانيات الإدراكية؛ إذ تتمّ دراسة البنى الصورية للّغة لا بما هي مستقلّة، ولكن باعتبارها انعكاسًا للتنظيم المفهومي العامّ، ومبادئ المقولات، وآليات المعالجة وتأثيرات التجربة والبيئة.

[Dirk Geeraerts & Hubert Cuyckens, The Oxford handbook Of Cognitive Linguistics, p. 3 - 5]

هنا تبدأ ملامح العلاقة بين العلوم الإدراكية واللسانيات والاستفادة المتبادلة بينهما في الاتّضاح، فقد استفادت اللسانيات الإدراكية من العلوم الإدراكية بأن أصبحت ملتزمةً بالتعميم (Generalization Commitment)، وهو أن يستوعب الدرس اللساني جميع مظاهر النشاط اللغوي، فما دامت اللغة منبثقةً من قاعدة إدراكية، فلا بدّ أن تُدرَس جميعها في تفاعلها وتكاملها واشتغالها معًا، لا بما هي منظومات مستقلّة عن بعضها (صوتية، صرفية، إعرابية، دلالية و...)، كما لا بدّ لها أن تلتزم كذلك بإقامة حقائق لغوية متوافقة والحقائق الثابتة في سائر العلوم الإدراكية، وهو ما أطلق عليه "الالتزام المعرفي" (Cognitive Commitment)، ويلغى منها كلّ ما لا ينطلق من أرضية إدراكية، كما أنّ النحو في العلوم الإدراكية يصبح عمليةً ذهنيةً

تجـرّد فيه اسـتعمالات عديـدة في الواقـع، وتصبح بذلـك المعرفة والاسـتعمال شـيئًا واحـدًا، والعارف باللغـة هـو العـارف بمـا بـه يكـون الاسـتعمال، ويطلـق على هـذه الفرضيـة القائمـة على الاسـتعمال (Usage-based thesis)، وهي فرضيـة حـاضرة بقـوّة في جميـع النظريـات اللسـانيات الإدراكيـة. أمّـا جهـة تأثّـر العلـوم الإدراكيـة باللسـانيات، فـهي أنّهـا أرجعـت النشـاط اللغـوي إلى أرضيتـه الذهنيـة العصبيـة وجعلتـه مهـارةً تحكمهـا المبـادئ الإدراكيـة العامّـة وليـس المبـادئ اللسـانية الخاصّـة باللغـة، وبهـذا تتسـامى اللغـة ليمكـن مـن خلالهـا فهـم الكثـير مـن مظاهـر الإدراك البـشري وطبيعتهـا ونشـوئها أو اكتسـابها وتغيّرهـا. [الزنـاد، نظريـات لسـانية عرفنيـة، ص 32 - 34]

المبحث الثاني: اللسانيات الإدراكية وعلاقتها بالإدراك والمعنى

أوّلًا: الدور الإدراكي للّسانيات الإدراكية

لا يمكـن النظـر إلى اللسـانيات الإدراكيـة بأنّهـا نظريـة واحـدة للّغـة، بـل هي مجموعـة مـن المقاربـات والنظريـات المتوافقـة الواسـعة النطـاق وذات المنظـور المشـترك، ولكـن لـم يتـمّ ـ لحـدّ الآن ـ تجميعهـا تحـت نظريـة واحـدة واضحـة المعالـم، فـلا يمكـن تحديدهـا بشـكل دقيـق شـامل مـا إذا كان شيء مـا ينتـمي إلى اللسـانيات الإدراكيـة أم لا، فـهي إطـار عمـل مـرن يتشـكّل مـن مناهـج متداخلـة جزئيًـا بـدلًا مـن نظريـة واحـدة، طبعًـا هـذا لـم يمنـع اللسـانيين الإدراكيـين مـن البحـث عـن السـمات المشـتركة والأساسـية ووجهـات النظـر المشـتركة بـين العديـد مـن أشـكال البحـث التي تـأتي معًـا تحـت عنـوان "اللسـانيات الإدراكيـة".

[Dirk Geeraerts, Cognitive Linguistics – Basic Readings, p. 2 - 3]

أمّـا مـا يمـيّز اللسـانيات الإدراكيـة عـن البحـوث اللسـانية الأخـرى ـ ومنهـا النحـو التوليـدي لتشومسـكي الذي يعـدّ كذلـك مفهومًـا إدراكيًـا للّغـة وينسـب الحالـة العقليـة إلى اللغـة، ولكنّـه يركّـز على الجانـب الصـوري فيهـا ـ فهـو أنّ هـذا الحقـل لا يشـير إلى أنّ اللغـة هي ظاهـرة نفسـية حقيقيـة وحسـب، ولكـن يؤكّـد أن معالجـة المعلومـات وتخزينهـا هي وظيفـة أساسـية للّغـة، فاللسـانيات في هـذا الإطـار لا تنظـر إلى اللغـة كمـا في الإطـار التوليـدي، بـل تـرى أنّهـا هي نفسـها شـكل مـن أشـكال المعرفـة، ويجـب تحليلهـا وفقًـا لذلـك، مـع التركـيز أكـثر على المعـنى، وهـذه هي الخاصّيـة الأساسـية لهـذا الحقـل العلـمي.

وبالإضافـة إلى تأكيـده على الوظيفـة السـيميائية والتفاعليـة للّغـة، يـرى أنّ هـذه الوظائـف تعتمـد على التصـوّر ويجـب تحليلهـا وفقًـا لذلـك، كمـا يقـاوم هـذا الحقـل الحـدود المفروضـة بـين

اللغـة والظواهـر النفسـية الأخـرى، وينظـر إلى اللغـة على أنّهـا وجـه متكامـل مـن جوانـب الإدراك، وليسـت كيانًـا متمايـزًا قائمًـا بذاتـه (وحـدة منفصلـة أو ملكـة عقليـة)، وهـو ما أكّـده بعـض روّاده في سـبعينات القـرن العشريـن وثمانيناتـه، أمثـال جـورج لايكـوف ومـارك جونسـون، وهـو مـا جـاء في البيـان الافتتـاحي للعـدد الأوّل مـن مجلّـة "اللسـانيات الإدراكيـة" (Cognitive Linguistics)، الذي نُـشر عام 1990؛ إذ ورد فيـه أنّ اللغـة «أداة لتنظيـم المعلومـات ومعالجتهـا ونقلهـا» أي أنّ دلاليتهـا تقـع في المقـام الأوّل، وهـو مـا يخالـف الرؤيـة التشومسـكية الـتي تحـصر اللغـة بشـكل أسـاسي في مجموعـة مـن المصطلحـات الصوريـة، والبـنى والقواعـد النحويـة الصوريـة، والمعـنى في هـذا الأثنـاء ثانـوي، وهـو ناتـج عـن البنيـة متأخّـر عنهـا، ويتـمّ تحليـل النحـو دون أخـذ السـياق بعـين الاعتبـار.

[Look: Dirk Geeraerts, Cognitive Linguistics – Basic Readings, p 3; Cognitive Grammar: A Basic Introduction Ronald W. Langacker, p. 8]

وقـد اختلفـت آراء اللغويـين والفلاسـفة حـول أحقّيـة اللسـانيات الإدراكيـة بوصفهـا علمًـا وجدواهـا، ومـا إذا كانـت تقـدّم الإضافـة الـتي عجـزت العلـوم الأخـرى عـن تقديمهـا فيمـا يخـصّ المعرفـة؛ إذ يـرى لازار (Gilbert Lazard) أنّ شـمول العلـوم الإدراكيـة للّسـانيات مبـنيٌّ على الاعتقاد بـأنّ التفكـير المفهـومي يرتبـط ارتباطًـا وثيقًـا باللغـة، أمّـا إذا قلنـا بخصوصيـة الظواهـر اللغويـة، أو أنّهـا وإن كانـت متمـيّزة إلّا أنّ لهـا نحـوًا مـن الارتبـاط، فإنّـه في كلتـا الحالتـين يكـون مفهـوم اللسـانيات الإدراكيـة غامضًـا؛ إذ إنّـه في الحالـة الأولى تكـون أيّ لسـانيات إدراكيـةً، وفي الحالـة الثانيـة، لا يكـون أيٌّ منهـا كذلـك.

[Catherine Fuchs. La linguistique cognitive existe-t-elle?. Quaderns de filologia. Estudis literaris, 2009, 14, pp 115-133]

ويضيـف أنّ أيّ نظريـة لسـانية لـكي تكـون إدراكيـةً فإنّـه إمّـا أن ترجـع إلى المفهـوم التقليـدي للّغـة باعتبارهـا نظامًـا رمزيًّـا للتوافـق بـين الأشـكال والمعـاني، وفي هـذه الحالـة، سـيكون وصفهـا بالإدراكيـة لغـوًا، فـهي اللسـانيات بـكلّ بسـاطة، وإمّـا أن تتجـاوز النطـاق المناسـب لهـذا التخصّـص، وتحـاول العثـور على دوافـع "خارجيـة" للظواهـر اللغويـة الـتي تمّـت ملاحظتهـا أو اسـتنتاج الخصائـص العامّـة للعقـل البـشري مـن هـذه الملاحظـات، وفي هـذه الحالـة، سـيتجاوز الأمـر اللسـانيات، وسـتقع في محظـور غـرق اللسـانيات في المسـائل الإدراكيـة، وفقدانهـا هويتهـا.

[Look: LAZARD, G, "What are we typologists doing?". In Z. Frajzyngier & al., Linguistic Diversity and Language Theories, p. 19 - 20]

ويـردّ بعـض اللسـانيين وعلمـاء الإدراك بـأنّ الالـتزام بالتعميـم والالـتزام المعـرفي الذي تتمـيّز بـه اللسـانيات الإدراكيـة الذي يصـف المبـادئ العامّـة للّغـة البشريـة ويتوافـق مـع مـا هـو معـروف عـن العقـل والدمـاغ، يؤكّـد أنّ اللغـة ليسـت نتـاج وحـدة منفصلـة عـن الإدراك العـامّ، بـل إنّ اللغـة تعكـس جوانـب غـير لغويـة لـلإدراك وتتأثّـر بهـا؛ لهـذا يمكـن اعتبـار نظـام اللغـة نفسـه نافـذةً للتحقيـق في البنيـة المفهوميـة وعمليـة بنـاء المعـنى.

[Evans, V. Green, M Cognitive Linguistics: An Introduction, p. 27]

لهـذا فاللسـانيات الإدراكيـة مـن هـذه الجهـة قدّمـت الإضافـة الـتي لـم تهتـمّ بهـا اللسـانيات، ويمكـن اعتبارهـا مـن هـذه الجهـة حقـلًا منفصـلًا عـن اللسـانيات.

ولا يعـني الاهتمـام بالمبـادئ الإدراكيـة العامّـة الـتي تحكـم اللغـة عنـد جميـع البـشر أنّ جميـع اللغـات متماثلـة، بـل إنّ الدراسـات الإدراكيـة أثبتـت أنّ اللغـات يمكـن أن تختلـف جذريًّـا مـن الناحيـة التنظيميـة والبنيـة المفهوميـة، فالمبـادئ الإدراكيـة وإن اشـتركت إلّا أنّهـا قـد لا تـؤدّي إلى نشـوء بنيـة لغويـة موحّـدة، وفي الوقـت نفسـه، فـإنّ وجـود أنمـاط مشـتركة معيّنـة في اللغـات هـو أمـر تجريـبي واقـع، وهي أنمـاط لغويـة عالميـة بالنسـبة لعلمـاء اللغويـات الإدراكيـة، وهـذا مـا يشـير إلى أنّ المتحدّثـين بلغـات مختلفـة لديهـم أنظمـة مفهوميـة أساسـية مختلفـة. [Ibid, p. 28]

وقـد يكـون جـواب اللسـانيات الإدراكيـة على مشـكلة العلاقـة بـين الفكـر واللغـة ـ هـذه المشـكلة الفلسـفية والسـؤال الذي ظـلّ مطروحًـا في الفكـر الفلسـفي لمـدّة طويلـة ـ مفتاحًـا لتحديد مشروعيـة اللسـانيات الإدراكيـة. في الإجابـة عـن سـؤال العلاقـة بـين اللغة والفكـر تشـكّل اتّجاهان أساسـيان لـكّل منهمـا تشـعّبات، الاتّجـاه الأوّل وهـو الذي يـدعى "كونيّـة الفكـر" (Universalism) ويقـول باسـتقلال الفكـر عـن اللغـة وأسـبقيته عليهـا، وإمـكان قيـام فكـر دون لغـة، وأنّ اللغـة نتـاج عقـل الإنسـان ومـا هي إلّا وسـيلة للتعبـير عـن الفكـر، وأنّ جميـع البـشر يتشـاركون بنيـةً معرفيـةً موحّـدةً، وهـو اتّجـاه يتزعّمـه اللسـاني الأمريكـي تشومسـكي (Noam Chomsky). وهنـاك اتّجـاه آخـر مقابـل يقـول بـضرورة اللغـة للتفكـير، وتتشـعّب عنـه تيّـارات مختلفـة، أكثرهـا تشـدّدًا "الحتميـة اللغويـة" (Linguistic Determinsim) الذي يتزعّمـه وورف (Benjamin Lee Whorf) ويـدّعي عـدم إمـكان قيـام فكـر دون لغـة، وأنّ اللغـة هي الـتي تحـدّد طريقـة التفكـير، وافتقـاد اللغـة لبعـض الكلمـات والتعابـير يفقـد مسـتعملها إمـكان التفكـير في أفـكار معيّنـة.

حسب الاتّجاه الأوّل الذي يشكّل إجماعًا نسبيًّا بين اللسانيين حسب كاثرين فوكس (Catherine Fuchs)، فإنّ اللغة ما دامت هي المكوّن للشكل البشري من الفكر على وجه التحديد، فإنّ الدور الإدراكي للّسانيات يتمثّل في تفسير الروابط بين المعاني اللغوية والمفاهيم، وتنفيذ بعض النماذج النوعية من الإجراءات. وهذا ما تقوم به اللسانيات الإدراكية، فحسب دعاة النحو الإدراكي تقوم اللغة بفتح نافذة على المعرفة، وتفسّر وضعية المعاني اللغوية من خلال علاقتها بالمفاهيم.

وتعلّق فوكس أنّه حسب هذا الاتّجاه، يمكن القول إنّه باستثناء النظريات القائمة على المدرسة السلوكية التي تستبعد الظواهر الشعورية من مجال دراستها، فإنّ جميع النظريات اللسانية المرتبطة بهذا الاسم تهدف دائمًا في موضوع دراستها إلى تشكيل روابط بين مستوى الأشكال ومستوى المعنى، وإذا كان هذا كافٍ لكونها إدراكيةً، فإنّ النظرية اللغوية أيًّا كانت ستكون بحكم الواقع إدراكية، ولا تصبح هناك أيّ أهمّية لهذه الصفة!

[Fuchs, Catherine, La linguistique cognitive existe-t-elle? Quaderns de filologia. Estudis literaris, 2009, 14, pp.119-120]

ويلاحظ أندلر (Daniel Andler) أنّ مقاربة "العلوم الإدراكية" هي كتلة غير منسجمة من البرامج البحثية من العديد من التخصّصات التي لا علاقة خاصّةً لها بالإشكالية الإدراكية وتتطوّر بعيدًا عنها ... لهذا ربّما يجدر بنا أن نذكر أنّه ليست هناك حاجة للمطالبة بلسانيات إدراكية من أجل لسانيات عظيمة! [Ibid, p. 119]

ومع كلّ هذه الانتقادات إلّا أنّ اللسانيات الادراكية تواصل طيّ مسيرها، وتطوير أساليبها غير آبهة بما يعرّض به عليها، وقد أصبحت الآن تخصّصًا يعتدّ به، وأصبحت موضةً لدارسي اللغة والمعرفة، إلّا أنّه مع كّل ما وصلت إليه، يشير بعض الفلاسفة واللسانيين والمعرفيين إلى أنّ هناك ضوابط يجب مراعاتها، منها ضرورة التدقيق في البحث عن الهياكل الكلّية التي تكشف عن ثوابت اللغة، وفي الوقت نفسه تفسير اختلافاتها، هذا الأمر الذي يواجه تحدّي النسبية اللغوية وتأثير اللغة على الفكر، ممّا ينسف عالمية هذه الهياكل والتخصّص الإدراكي ككلٍّ. كما أنّ التخصّص يثير مسألة الحدود بين التخصّصات من ناحية الموضوع، ومن الناحية المنهجية خطر إدخال الحدس في المنهج المعرفي، كما أنّ أسسه التجريبية تفتقد المتانة اللازمة.

[See: Ibid, p 126 -130; Evan V, Green M. Cognitive Linguistics: An introduction, p. 55; 95 - 101]

ثانيًا: اللسانيات الإدراكية والمعنى.. أسس العلاقة ومخرجاتها

وليست اللسانيات الإدراكية النهج اللساني الوحيد الذي يركّز على المعنى، بل هو تيّار من التيّارات التي تؤكّد الجانب الوظيفي للّغة، كالتداولية وعلم الدلالة الصوري وغيرهما، لكنّ ما يميّز اللسانيات الإدراكية ـ حسب علمائها ـ أنّها تتعامل مع المعنى وفق خصائص أربع:

الطبيعة المنظورية والتجسّد: فالمعنى عندهم ليس مجرّد انعكاسٍ للموضوع الخارجي، بل هو طريقة معيّنة لتشكيل العالم وتفسيره وتجسيد منظر له، وأسهل طريقة لفهم هذه النقطة هي المنظورات المكانية؛ إذ يمكن التعبير عن الحقيقة الواحدة لغويًّا بطرق مختلفة تتعدّد بتعدّد المنظورات، فأنت يمكن أن تصف شيئًا أنّه أمام شيءٍ آخر وخلفه في آنٍ واحد، ومع أنّ هذه العبارات قد تبدو متناقضةً، إلّا أنّها تجسّد وجهات نظر مختلفة.

الحيوية والمرونة: فيرون أنّ المعاني في هذا الإطار تتغيّر بتغيّر العالم الذي ترتبط به، ومن أجل أن نتكيّف والتحوّلات الجديدة علينا أن نكيّف مقولاتنا الدلالية وفقًا لها، دون أن نهمل الحفاظ على هامش لبعض الفروق البسيطة والحالات الشاذّة، وهذا لا يتمّ من خلال النظر إلى اللغة كمجرّد بنية صلبة وثابتة، كما جرت عليه اللسانيات في القرن العشرين، بل وجب النظر إلى البنى اللغوية على أنّها مرنة.

الموسوعية وعدم استقلاليته: المعنى الذي نشكّله باللغة ليس وحدةً منفصلةً يستقلّ العقل بها، بل تشترك كلّ ذاتنا في تشكيله، وهو ليس منفصلًا عن الأشكال الأخرى لمعرفتنا بالعالم، بل تنعكس فيه تجربتنا بأكملها، فهو موسوعي وغير مستقلٍّ، وينطوي على معرفة بالعالم تتشابك مع قدراتنا الإدراكية الأخرى كالقياس والتجريد والتصنيف وتشكيل المخطّط و...، ولهذا الأساس التجريبي للمعنى اللغوي بعدان: الأوّل هو كوننا كائناتٍ متجسّدةً، ولسنا عقولًا محضةً، فطبيعتنا العضوية تؤثّر في تجربتنا، وهذا ما ينعكس في اللغة التي نستخدمها، أمّا البعد الآخر فهو البعد الثقافي الاجتماعي، فهو يؤثّر أيضًا في لغتنا وينعكس فيها.

المعنى اللغوي يتشكّل وفقًا للاستعمال والتجربة: المعنى اللغوي مؤسّس على التجربة، بل ومتجذّر فيها، ويمكن تحديد الطبيعة التجريبية للمعرفة اللغوية من خلال الإشارة إلى أهمّية استخدام اللغة لمعرفتنا باللغة، مثلًا عندما يطرح أحدهم السؤال: هل بإمكانك فتح النافذة؟

فالبنيـة بنيـة سـؤال، لكنّـه في الحقيقـة ـ حسـب السـياق ـ ليس سـؤالًا حـول قدرتـك أو عدمها، بل هـو طلـب، وهـذا المعـنى غـير موجـود في البنيـة، بل مستشـفٌ ونابـعٌ مـن التجربـة والسـياق، فالبنى المجـرّدة في اللغـة ـ على سـبيل المثـال في التركيـب: الفعـل ـ الفاعـل ـ المفعـول بـه ـ المتمّمـات، مثـل أرسـل زيـد رسـالةً إلى بكـر ـ لا تلاحَـظ بشـكل مبـاشر، ومـا نلاحظـه ويشـكّل أسـاس التجريـبي هـو مجـرّد سلسـلة مـن الكلمـات؛ لهـذا كانـت اللسـانيات الإدراكيـة نموذجًـا للنحـو يعتمـد على الاسـتخدام، وهـذا نهـج ثـوري إلى حـدٍّ مـا مـن وجهـة نظـر علـم اللغـة السـائد في القـرن العشرين، فهـو يمـيّز بـين مسـتوى بنيـة اللغـة ومسـتوى اسـتخدام اللغـة، وكمـا عـبّر عنـه دي سوسـور، بـين اللغـة والـكلام. [Look: Dirk Geeraerts, Cognitive Linguistics - Basic Readings, p. 4 - 6]

ومـن خـلال هـذه الخصائـص، يمكـن اسـتنتاج أنّـه مـا دامـت الوظيفـة الأساسـية للّغـة هي المعـنى، فـإنّ اللسـانيات الإدراكيـة تعطـي الأولويـة لعلـم الدلالـة في التحليـل اللغـوي، وهـذا عـن طريـق "المَقْوَلَـة" (Categorization)، أمّـا الخصائـص الأخـرى فتحـدّد طبيعـة الظواهـر الدلاليـة، فالطبيعـة الموسـوعية للمعـنى تابعـة للوظيفـة المقوليـة للّغـة، واللغـة هي نظـامٌ لمَقوَلـة العالـم، ولا وجـود لمسـتوًى منهـجي أو بنيـوي للمعـنى يختلـف عـن المسـتوى الذي تكـون فيـه معرفـة العالـم مرتبطـةً بأشـكال لغويـة، وتشـير الطبيعـة المنظوريـة للمعـنى اللغـوي إلى أنّ العالـم لا ينعكـس بشـكل موضـوعي في اللغـة، بـل الوظيفـة المقوَليـة للّغـة تفـرض بنيـةً للعالـم غـير الواقـع الموضـوعي.

وبينمـا يهتـمّ التوليديـون بمعرفتنـا باللغـة وكيفيـة اكتسـاب هـذه المعرفـة، وأنّ هنـاك بـنًى عقليـةً تتشـكّل مـن خـلال الطبيعـة الوراثيـة للبـشر الـتي تمكّنهم من تعلـم اللغـة، يتّفـق المعرفيون على أنّـه لا يمكـن أن تكـون هنـاك معرفـة بـدون وجـود تمثيـل عقـلي له دور تأسـيسي ووسـيط في العلاقـة الإدراكيـة بـين الذات والموضـوع، واللغـات الطبيعيـة هي الـتي تجسّـد بدقّـة المنظـورات المقوليـة المرتبطـة بالعالـم الخـارجي بدقّـة، ولكـن يـرون أنّ اللغـة الطبيعيـة نفسـها تتكـوّن مـن هـذه البـنى. [Dirk Geeraerts & Hubert Cuyckens, The Oxford handbook Of Cognitive Linguistics, p. 5 - 6]

وعلى هذا الأساس يمكن أن تصنّف المسائل التي تهتمّ بها اللسانيات الإدراكية في محورين:

النحو المعرفي ويدرس الوحدات اللغوية الرمزية التي تحتويها اللغة.

الدلاليـات الإدراكيـة وتـدرس العلاقـات القائمـة بـين التجربـة والإدراك واللغـة، وهـذا هـو المحـور الذي سـيتركّز عليـه بحثنـا.

أ_ الدلاليات الإدراكية

تنطلق الدلاليات الإدراكية أو علم الدلالة المعرفي (Cognitive Semantics) من عدم التسليم بمركزية المكوّن الإعرابي، ويعدّ المفهوم (concept) وكيفية حصوله في ذهن المتكلّم أو السامع معطًى مركزيًّا، ويمثّل البناءَ النظري الأهمّ والوحدة الأساسية في التمثيل الذهني (mental representation) في النظريات الدلالية الإدراكية، وهو ما يميّزها عن بقيّة الدلاليات الأخرى، فعلى خلاف اللسانيات الكلاسيكية التي ترى اللغة نظامًا من العلامات مستقلًّا عن سائر الأنظمة الإدراكية كالإدراك والذاكرة والتفكير والفهم و...، تصبح اللغة في هذا الإطار (الدلاليات الإدراكية) نشاطًا منفتحًا على بقيّة القدرات الإدراكية، وتصبح اللغة من خلالها عدسة ينظر بها في هذه الظواهر الإدراكية والكشف عن جانب منها، يصف تالمي (Leonard Talmy) أحد المنظّرين الأساسيين لهذا الحقل المستجدّ الدلالات الإدراكية فيقول: «البحث عن الدلالات الإدراكية هو البحث في المحتوى المفاهيمي وتنظيمه في اللغة» [Talmy, Leonard, Toward a Cognitive Semantics, p. 4].

فليست اللسانيات في هذا النموذج مجرّد منوال لساني لمقاربة المعنى، بل هي أقرب إلى أن تكون منوالًا نظريًّا عامًّا حول الذهن.

[Evans, V. Green, M Cognitive Linguistics: An Introduction, p. 48 - 49]

فكان من أهمّ مبادئها الإشارة إلى دور الجسد في تشكيل الذهن والتجربة والمعرفة من خلال دراسة الأبنية اللغوية، ورصد أسسها التصوّرية المجسدنة، ومثّلت الدلالة اللغوية أبرز حقول البحث والإجراء.

أهمّ المفاهيم الأساسية للدلاليات الإدراكية

أحصى علماء اللسانيات الإدراكية بعض القوالب المفهومية التي يعدّونها مهمّةً وتمثّل القاعدة الأساسية لهذا العلم، ومن بين هذه المفاهيم يمكن ذكر: التجسيد (Embodiment)، والاستعارة المفهومية (Conceptual Metaphor)، ونظرية الطراز أو المنوال (Prototype)، والفضاءات (الأفضية) الذهنية (Mental Spaces)، والشبكة الشعاعية (Radial Network)، والكناية (Metonymy) وغيرها من المفاهيم، طبعًا لن يسع هذا البحث المقتضب التطرّق لكلّ هذه المفاهيم؛ لهذا سنحاول إلقاء الضوء على بعضها بشكل إجمالي ونحيل القارئ المهتمّ إلى المصادر لمزيد من التفصيل.

1ـ التجسيد أو الجسدنة (The Embodiment)

اخترنا أن نبدأ هذه المفاهيم بمفهوم التجسيد؛ فقد رأينا فيما سبق أنّ هذا المفهوم يعدّ إحدى الخصائص الأربع التي تؤطّر اللسانيات الإدراكية وتميّزها عن بقيّة المقاربات اللسانية الأخرى التي تركّز على المعنى، وفي ضوء هذا المفهوم ستتّضح بقيّة المفاهيم الأخرى التي سنتناولها فيما يلي من بحثنا.

التجسيد في اللغة من جسد، الجَسَدُ: البدنُ، تقول منه: تَجَسَّدَ، كما تقول من الجسم: تَجَسَّمَ [ابن منظور، لسان العرب، ج 3، ص 120] والذي يعني أنّ الشي صار له جسم وأصبح ذا طبيعة جسمية، وهو ما يتوافق مع معادل هذا المصطلح في الإنجليزية (Embodiment)، وهو من (To Embody) الذي يعني أن تجعل جسدًا لشيء ما، وتجعله محسوسًا وملموسًا.

[merriam-webster.com/dictionary/embody]

أمّا في الاصطلاح، فالأفضل أن نلقي نظرة على أصل تاريخ هذا المفهوم لكي يتّضح لنا المفهوم أكثر؛ إذ تعود جذور هذا المصطلح إلى الرؤية لحقيقة العقل، فبينما يعدّ الفكر العقلاني القديم، الذي ينطلق من الرؤية الفلسفية العقلانية القديمة التي ترى أنّ الفكر انعكاس للواقع الخارجي، وأنّ العقل والفكر مجرّد صرف لا علاقة له بالمادّة والجسم، بل يتعالى عليها ويتجاوز كلّ حدودها، وحتّى وإن تجسّدت المفاهيم (مادّة العقل) في أجسام معيّنة لكنّها تظلّ مجرّدة عن الجسد الذي يحملها، يرى الفكر الجديد أنّ للعقل أسسًا جسديةً، وأنّ الجسد أداة يتوصّل بها إلى المفاهيم المجرّدة، ويفرض بذلك بحكم طبيعيته حدودًا على المفاهيم والفكر، بل ويصبح في الرؤية التجريبية أداةً تمكن من التفكير، وليس مجرّد موضوع يتحقّق التفكير فيه، بالإضافة إلى أنّ الفكر تخيّلي يستعمل المجاز، والكناية، والصور الذهنية، ولا يقف عند التمثيل الحرفي للواقع الخارجي، إضافة إلى الخاصّية الجشطالتية (Gestalt) للفكر وأنّه ليس ذرّيًّا؛ فللمفاهيم هيكل شامل يتجاوز مجرّد تجميع "لبنات البناء" المفاهيمية من خلال القواعد العامّة.

[George Lakoff, Women, Fire, and Dangerous Things, What Categories Reveal about the Mind, Preface]

ولفكرة التجسيد تجلّيات عديدة في اللسانيات الإدراكية، وتعدّ الاستعارة المفهومية أهمّها، ومن فروعها الاستعارة الجسدية (Body metaphor)، حيث يستعار الجسد لتمثيل مفاهيم أخرى، بالاضافة إلى قوالب مفهومية سنبحثها فيما يلي من البحث.

2ـ الاستعارة المفهومية (Conceptual Metaphor)

يمكن عدّ الاستعارة المفهومية المفهوم الأكثر شهرةً في اللسانيات الإدراكية، وتعود بداية اهتمام اللغويات الإدراكية بدراسة الاستعارات إلى سبعينات القرن الماضي، لكنّ الكتاب الذي ألّفه لايكوف (George Lakoff) وجونسون (Mark Johnson) ونشر عام 1980 المعنون: "الاستعارات التي نعيش بها" (Metaphors We Live By) يعدّ منعطفًا مهمًّا للغاية في دراسة هذا المفهوم من الناحية الإدراكية. فيما يلي سنتحدّث بالتفصيل في الاستعارة المفهومية بوصفها إحدى البنى المهمّة للدلاليات الإدراكية، ثمّ نتطرّق إلى بعض تطبيقاتها في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الاستعارة المفهومية

أوّلًا: رؤية الدلاليات الإدراكية للاستعارة

تختلف نظرة اللسانيات الإدراكية للاستعارة، فهي ليست تلك النظرة اللغوية البسيطة الرائجة التي تنظر للاستعارة بوصفها اصطلاحًا لغويًّا تستعمل فيه الكلمات والعبارات بشكل يختلف عن استعمالها الطبيعي، والتي هي في البلاغة العربية تشبيه حذفت بعض أركانه، ويستخدمها الشعراء وغيرهم من الكتاب للتعبير عن مجموعة من العواطف والأحاسيس. لا، بل ينظر إليها في اللسانيات الإدراكية من زاوية مختلفة، وتعدّها أنماطًا من الارتباط المفهومي؛ إذ نعبّر عن أشياء معيّنة ونفهمها في ضوء الإطار المفهومي لأشياء أخرى؛ لهذا سمّيت استعارةً مفهوميةً، ويردّ جورج لايكوف ومارك جونسون على النظرة السائدة حول الاستعارة وأنّها خصّيصة للّغة فقط، ويؤكّدان الأهمية الكبيرة للاستعارة في حياتنا، وأنّ مجالها يتعدّى إلى الفكر والعمل:

«يعتقد معظم الناس أنّ بإمكانهم المضيّ في حياتهم دون الاستعارة، ولقد وجدنا على العكس من ذلك أنّ الاستعارة أمر رائج في الحياة اليومية، ليس في مجال اللغة وحسب، بل في الفكر والعمل أيضًا، فنظامنا المفهومي العادي الذي نفكّر به ونتصرّف وفقًا له يعدّ استعاريًّا بطبيعته» [Lakoff & Johnson, Metaphor We Live By, p. 3].

مثلًا عندما يقال في اللغة العربية: "يطير فرحًا"، لغويًّا هو تشبيه حذف فيه المشبّه به الذي هو الطائر؛ والأصل فيه الإنسان كالطائر، هنا استعير الطيران للتعبير على الفرح الشديد، وهكذا عندما نصف شخصًا حقّق نجاحًا باهرًا فنقول: "عانق النجوم"، وعندما

نعبّر بـ "اشتعل الرأس شيبًا" عن الانتشار الكثيف للشيب في الرأس، أمّا من الناحية الإدراكية نكون قد قمنا بنقل معنًى من مجاله الأصلي ـ الذي هو في مثالنا الطيران والوصول إلى النجوم واشتعال النار ـ لننقله إلى مجال آخر ونعبّر به عن المعنى المنظور وهو الفرحة الشديدة والنجاح الباهر وانتشار الشيب في الرأس.

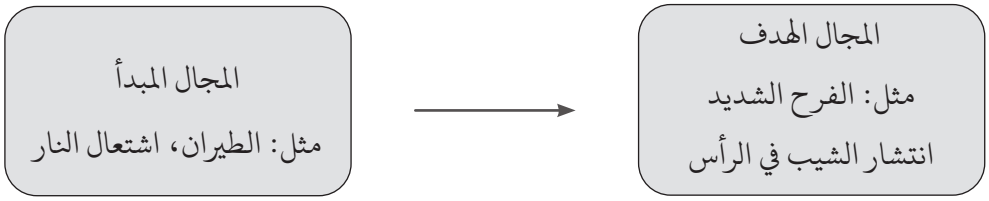

وهناك جانبان يتجلّيان في نظرية الاستعارة المفهومية، أوّلًا: يتمّ التعامل مع الاستعارة بوصفها آليةً إدراكيةً عامّةً، وليس آليةً لغويةً خاصّةً تعمل على مستوى التعبيرات الفردية. ثانيًا: تتضمّن الاستعارة التفاعل بين مجالات الخبرة المختلفة: المجال المصدر (في المثال: الطيران، اشتعال النار) والمجال المستهدف (الفرح، انتشار الشيب في الرأس)، وهذا ما يقابله الجسد والذهن في فكرة التجسيد؛ إذ تتمثّل المفاهيم المجرّدة في صورة مفاهيم مادّية.

ثانيًا: أنواع الاستعارة المفهومية

ذكر اللسانيون المعرفيون ثلاثة أنواع مهمّة للاستعارة المفهومية:

أ ـ الاستعارة الموجّهة (التوجيهية) (Orientational metaphor)

في هذا النوع لا يصاغ مفهوم في إطار مفهوم آخر، ولكن يشكّل نظامٌ كاملٌ من المفاهيم في إطار نوع آخر، ويسمّى الاستعارات الموجّهة أو التوجيهية؛ لأنّ معظمها يتعلّق بالاتّجاهات المكانية: أعلى ـ أسفل، داخل ـ خارج، أمام ـ خلف، عميق ـ سطحي، مركز ـ طرف، ومنشأ هذه الاتّجاهات المكانية مفهوم التجسّد الذي تطرّقنا إليه سابقًا؛ لهذا فالمفهوم في هذا النوع من الاستعارات يأخذ اتّجاهًا مكانيًّا، على غرار التفاؤل والسعادة التي هي مفاهيم غير مادّية، وبالتالي فلا كمّية لها ولا يمكن قياسها، إلّا أنّنا للتعبير عنها وعن مداها نستعمل مفرداتٍ ومعاني مكانيةً كالارتفاع والعلوّ، فنقول: معنوياته مرتفعة أو عالية، والعكس بالنسبة للتشاؤم والحزن يقابله الحضيض والأسفل، فنقول معنوياته في الحضيض أو متدنّية، ورغم أنّ هذه الاتّجاهات هي فيزيائية بالطبع، إلّا أنّ استعمال الاستعارات التوجيهية لها يختلف باختلاف الثقافات. [Ibid, p. 14 - 15]

ب ـ الاستعارة الأنطولوجية (Ontological metaphor)

من خلال تجربة الأشياء والأمور المادّية، يتعزّز رصيد الإنسان بقاعدة إضافية للفهم تتجاوز مجرد الاتّجاهات، وهو فهم تجاربنا في إطار الأشياء والأمور المادّية، ويتاح لنا بذلك اختيار أجزاء من تجربتنا والتعامل معها بوصفها وحداتٍ منفصلةً أو أشياء مادّيةً من نوع واحد، وبعد أن نحدّد تجاربنا بوصفها وحداتٍ أو موادّ، يمكن التعامل معها على هذا الأساس والتفكير حولها، وكما أنّ تجارب الإنسان للاتّجاهات المكانية يستعان بها في الاستعارات التوجيهية، فإنّ تجاربه مع الأشياء المادّية ـ وخاصّةً جسده ـ كذلك تعدّ منطلقًا له لتشكيل مجموعة متنوّعة من الاستعارات الوجودية، أي طرق لمشاهدة الأحداث والأنشطة والعواطف والأفكار وما إلى ذلك ككيانات وأمور مادّية، وتستخدم هذه الاستعارات لأغراض مختلفة منها:

ـ الإحالة، كقولنا مثلًا: مستقبله على المحكّ، قيّد العلم بالكتابة.

ـ التكميم (من الكمّية)، كقولنا: صبر واسع، وبال طويل، وفكر عميق.

ـ تحديد الجوانب، كقولنا: يتحمّل جانبًا من المسؤولية، هناك جانب مظلم في شخصيته و....

[Ibid, p. 25 - 27]

مثلًا عند القول الصحّة تاج فوق رؤوس الأصحّاء لا يراه إلّا المرضى، فهذه الاستعارة، تقوم بتجسيد الصحّة والنظر إليها ككيان والتعامل معها بهذه الحيثية، ثمّ تسلّط الضوء وتبرز جوانب مهمّة في الصحّة وقيمتها ومكانة من يتمتّع بها، وأنّها بمنزلة التاج وأنّ الذي يتمتّع بها بمنزلة الملك، فكما أنّ الملك يمتلك مكانةً ساميةً بين سائر الناس، وأنّهم ينظرون إليه باعظام وإجلال وهو يلبس التاج، ويتمنّون لو أنّهم كانوا مكانه، وهذا ما يبثّ السعادة فيه، ويبعث فيه الفخر والاعتزاز، فكذلك الشخص السليم المعافى، فهو ذو مكانة كبيرة بين المرضى، فهم ينظرون إليه من حيث هو سالم معافى نظرة تعظيم وتبجيل، ويتمنّون أن يتمتّعوا بما يتمتّع به، وهذه الاستعارة نشأت ونمت في ثقافة معيّنة، ولكنّها تخفي جوانب أخرى، وهي أنّ الصحّة والمعافاة ليسا كافيين لوحدهما ليجعلا من يتمتّع بهما سعيدًا، وذا منزلة ووجاهة في المجتمع، كما أنّ صاحب التاج لا يكفيه لبسه للتاج لكي يكون ملمًّا بكلّ أسباب السعادة، بل يبقى دائمًا مفتقرًا إلى جوانب أخرى.

جـ- الاستعارة البنيوية (Structural Metaphor)

مع ما للاستعارات التوجيهية والأنطولوجية من أهمّية، لكنّها ما تزال تفتقر إلى بعض الغنى، وهذا الغنى تسدّه الاستعارات البنيوية، فهي تسمح لنا بالقيام بأكثر من مجرّد توجيه المفاهيم والإشارة إليها، وتحديدها كمّيًّا، كما في الاستعارات التوجيهية والوجودية؛ فإنها تسمح لنا بالإضافة إلى ذلك باستخدام مفهوم منظّم للغاية ومُحدّد بوضوح لبناء مفهوم آخر، ويسمح هذا النوع من الاستعارات ليس بالتعبير على مفاهيم بتفصيل كبير وحسب، ولكن لإيجاد الوسائل المناسبة لإبراز بعض جوانبها وإخفاء بعضها الآخر أيضًا، وهي من هذه الجهة مصدر غنيٌّ جدًّا لتفصيل كهذا، وبعض هذه الاستعارات قد لا تكون عالميةً، بل متأصّلة في ثقافة وتجربة معيّنة للأمور المادّية وكيفية رؤيتنا للأشياء، وعندما نعيشها فإنّنا لا نتعامل معها على أنّها استعارات على الإطلاق. [Ibid, p. 61 - 68]

على سبيل المثال عندما نقول: الأمّ مدرسة، فإنّ المدرسة مفهوم يختزن الكثير من التفاصيل التي يمكن من خلالها التعبير عن مفهوم الأمّ؛ فكثير ممّا يمكن أن تقدّمه المدرسة للأطفال والتلاميذ من تعليم وتربية وتوجيه في الحياة تقدّمه الأمّ لأبنائها، وكما أنّ المدرسة تلعب دورًا كبيرًا في تكوين المجتمع السليم والحفاظ عليه تقوم كذلك الأمّ تضطلع بهذا الدور.

المبحث الرابع: إسقاطات قرآنية

يعجّ القرآن بالكثير من الأمثلة والشواهد المتضمّنة للاستعارة بمختلف أنواعها، سنحاول أن نسلّط الضوء على بعض الأمثلة من كلّ نوع منها، ونحلّلها معرفيًّا.

أوّلًا: الاستعارة الموجّهة

في القرآن الكريم كثيرًا ما تستعمل الاصطلاحات المكانية في الاستعارات التوجيهية للتعبير عن مفاهيم غير مادّية، مثلًا من أجل التعبير عن مفهوم المقام والمنزلة، استعان القرآن الكريم في أكثر من موضع بالكلمات التي تعبّر عن الاتّجاه والمكان، فكثيرًا ما استعمل لفظ "رفع" ومشتقّاته، وأوّل معنًى يتبادر منه إلى الذهن هو النقل والانتقال المكاني نحو الأعلى، وأنّ هناك شيئًا في مكان أسفل، وهناك شيء أعلى منه مكانيًّا، وقد استعمل القرآن هذا

اللفظ للدلالة على المقام والمرتبة السامية التي تعدّ مفهومًا غير مكاني وغير مادّي كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة الأنعام: 165]، فهو هنا لا يقصد بالرفع المكاني أيّ أنّه جعلكم من حيث المكان فوق الآخرين كما يتصوّر في الأذهان، بل جعل لكم منزلةً ومرتبةً وجوديةً أسمى وأفضل من تلك التي للآخرين، وهذا لأسباب عدّة منها الإيمان والعلم ومنها اتّباع الأنبياء و...، وهذه المرتبة والمنزلة مع أنّها حقيقة لا ربط لها بالمعاني المكانية، إلّا أنّه يتمّ الاستعانة بهذه المعاني لمقاربتها، وهو ما جاء كذلك في آيات أخرى [سورة المجادلة: 11؛ سورة آل عمران: 55]، حين يقول ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [سورة آل عمران: 55]، أو ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر: 10] فهنا لا يقصد أنّ الله ﷻ هو فوقٌ مكانيًا وأنّ عيسى عليه السلام تحت، وأنّ الله رفعه مكانيًّا إليه، أو أنّه تعالى فوق مكانيًّا وأنّ "الكلم الطيّب" الذي هو الاعتقادات الحقّة والمتيقّن منها هو كلمة التوحيد يصعد إليه، وما إلى ذلك من المعاني المكانية المجسّدة، بل كما رأى السيّد الطباطبائي في تفسيره أنّ صعود الكلم الطيّب هو إمّا تقرّبه منه تعالى أو تقرّب المعتقِد به منه تعالى، كما قد يعني صعوده كذلك قبول الله تعالى إيّاه. [انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 17، ص 23]

كذلك بالنسبة لرفع العلم الصالح؛ فالمقصود به بما أنّه لا مكان له تعالى من سنخ الأمكنة الجسمانية التي تتعاورها الأجسام والجسمانيات بالحلول فيها، والقرب والبعد منها، فالرفع هنا معنوي لا صوري، ورفع الدرجة والقرب من الله سبحانه [انظر: المصدر السابق، ج 3، ص 207]، والموارد من هذا القبيل كثيرة في القرآن الكريم.

كما استعمل القرآن لفظ "فوق"، وكلّ لفظ يدلّ على هذا المعنى المكاني كالعلوّ وغيره، للدلالة على مفاهيم أخرى غير مادّية، كما في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [سورة الأنعام: 18] و﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الفتح: 10] وكذلك: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [سورة الرعد: 9]، التي تدلّ هنا على مفهوم القوّة والتسلّط من كلّ الجهات. [انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج11، ص 308]

في مقابل ذلك استعملت الألفاظ المخالفة لهذه الألفاظ المذكورة وما شاكلها للدلالة على مفاهيم مقابلة للمفاهيم التي تشير إليها تلك الألفاظ، مثل لفظ "أسفل" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [سورة التين: 5] الذي يقصد به مقامٌ منحطٌّ هو أسفل من سفل من أهل الشقوة والخسران [انظر: الطباطبائي، الميزان، ج 20، ص 320]، أو في قوله تعالى:

﴿وجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [سورة التوبة: 40]، فالأسفل والأعلى هنا ليستا بمعناهما المكاني، كيف ومعنى "كلمة" نفسه ليس معنًى ماديًّا حتّى يمكن أن يكون لها موقع مكاني؛ إذ يقصد بها ما قضت به قريش في دار الندوة، وعزمت عليه من قتله ﷺ وإبطال دعوته الحقّة، بل "السفلى" هنا تأتي بمعنى البطلان، وأنّ الله ﷻ أبطل ما قضت به قريش وعزمت عليه، وتقابلها كلمة "العليا" بمعنى إظهار وانتصار ما قضاه الله. [انظر: الطباطبائي، الميزان، ج 9، ص 283]

والملاحظ في كلّ هذه المفاهيم غير المادّية وغير المتجسّدة، أنّ الذهن يلجأ ويستعين في مرتبة أولى بالمعاني المكانية المادّية لكي يدركها ويحصل له تصوّرٌ لها.

كذلك استعمل القرآن المعاني المكانية "وراء" و"أمام" و"بين" وما شابهها، للدلالة تارةً على ما حضر وما غاب عن الناس، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [سورة البقرة: 255]، الذي يشير هنا إلى تمام سلطته ﷻ وإحاطته بكلّ شيء يخصّ أفعال العباد ما حضر عندهم وعلموه وما غاب عنهم وما هو آتٍ في المستقبل، فالإنسان عادةً يكون مطّلعًا على الشيء الذي هو بين يديه مكانيًّا، أمّا الشيء الذي يكون خلفه مكانيًّا فهو عادةً لا يعلمه ويكون غائبًا عن علمه؛ لهذا استعير هذان المعنيان المكانيان للدلالة على مفاهيم غير مادّية وهي الحضور والغياب، وجسّدت بذلك هذه المفاهيم في قالب مكاني، وكذا في قوله تعالى حكايةً عن ملائكة الوحي: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [سورة مريم: 64] وقوله ﷻ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [سورة الجنّ: 26 و27]، جاءت المفردات المكانية "بين" و"خلف" وهي معانٍ مادّية للدلالة على مفاهيم غير مادّية، وهي كلّ ما هو يحيط بالإنسان أو ملك الوحي ويخصّهما، ما اطّلعوا عليه وما لم يطّلعوا، وأنّ الله ﷻ مراقب تمامًا للطريق الذي يسلكه الوحي فيما بينه وبين الناس، حافظ له أن يختلّ في نفسه بنسيان أو تغيير، أو يفسد بشيء من مكائد الشياطين وتسويلاتهم، وأنّ حملة الوحي من الرسل يسيرون بعينه وبمشهد منه [انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 2، ص 334؛ ج 14، ص 411]، كما قد تدلّ "مَا بَينَ أَيْدِيهِم" كذلك على ما قدّموا من أعمالهم أو ما عملوه، و"مَا خَلفَهُم" على ما أخّروا أو ما هم سيعملون، وذلك كما في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 28]، كما

استعمل مفردة اليمين التي تشير بدورها إلى معنًى متجسّد مكاني، للدلالة على معانٍ غير متجسّدة، فاستعملها للدلالة على السعادة تارةً، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿**قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ**﴾ [سورة الصافّات: 28]؛ إذ يعتقد صاحب تفسير الميزان أنّ اليمين هنا تعني جهة الخير والسعادة، وأنّ استعمال اليمين في هذا المعنى هو الشائع كثيرًا، على غرار قوله: ﴿**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ**﴾ [سورة الواقعة: 27] ومعنى "تَأْتُونَنا على اليَمِينِ" في الآية الأولى أنّكم كنتم تأتوننا من جهة الخير والسعادة فتقطعون الطريق، وتحولون بيننا وبين الخير والسعادة وتضلّوننا. وقد تدلّ اليمين على القهر والقوّة كذلك، وهي كذلك معنًى غير مادّي وغير متجسّد، كما في قوله تعالى: ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾ [سورة الصافّات: 93].

[انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 17، ص 133]

ثانيًا: الاستعارة الأنطولوجية

تفتح الاستعارة الأنطولوجية للإنسان مساحةً يشكّل من خلالها الأشياء في إطار مادّي، فتجربته للأشياء المادّية ـ وجسده بالخصوص ـ تشكّل منطلقًا له للتعامل مع أجزاء من أنشطته وعواطفه وأفكاره وما إلى ذلك، بوصفها وحداتٍ وكياناتٍ منفصلةً مادّيةً من نوع واحد، والتفكير حولها على هذا الأساس.

وقد أخذ القرآن هذا المطلب بعين الاعتبار واستفاد منه لايصال رسالته، مثلًا في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾ [سورة القارعة: 6 - 9]، والموازين هنا يقصد بها وزن الأعمال، ولكنّ الأعمال ليست أمورًا مادّيةً وغير متجسّدة وغير مقدارية، فلا تقبل الوزن والكيل والقياس، فلأجل الحديث عنها ووصفها وبيان مقدارها يتمّ التعامل معها ككيانات متجسّدة قابلة للقياس والوزن، ولأجل إعطاء صورة للمخاطب عن القدر الكبير للأعمال الخيّرة عند الله كالإيمان وأنواع الطاعات والمنزلة العظيمة التي تحظى بها، تمّ الإشارة إلى ذلك بوزن تلك الكيانات المتجسّدة وأنّها ثقيلة في الميزان، والشيء نفسه بالنسبة إلى الأعمال السيّئة، كالكفر وأنواع المعاصي، فقد تمّ التعامل معها أوّلًا بوصفها كياناتٍ متجسّدةً لتصبح قابلةً للقياس، ثمّ استعمل مفهوم خفّة الوزن ليعبّر عن منزلتها الدنيئة.

وكذلك استعمل لفظ "واسع" الذي يعدّ لفظًا مقداريًّا مختصًّا بالأمور الجسمانية، والذي يستعمل لوصف مقدار المساحات، للدلالة على مقادير أمور غير جسمانية، وهذا يحتاج

في خطـوة أولى إلى قولبـة هـذه المفاهيـم في إطـار كيانـات، وتجسـيدها في قوالـب مادّيـة ليمكـن حينئـذٍ تكميمهـا وإضفـاء صفـة الوسـعة عليهـا، مثـلًا في قـوله تعـالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ [سـورة النجـم: 32]، وكذلـك ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [سـورة الأعـراف: 156] وقـوله: ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا**﴾ [سـورة غافـر: 7]، فمفاهيـم المغفـرة، والرحمـة، والعلـم و...، هي كلّهـا مفاهيـم غـير مادّيـة، فـلا يمكـن تقديرهـا وبيـان منزلتهـا إلّا بالاسـتناد إلى قوالـب مادّيـة يسـتأنس بهـا المخاطـب ويفهـم في إطارهـا المفاهيـم غـير المادّيـة، وهـذا هـو الأسـلوب الذي نـراه متّبعًـا غالبًـا في القـرآن، وباسـتقصاء بسـيط نجـد القـرآن اختـصّ كلّ مفهـوم مـن هـذه المفاهيـم وحـصر صياغتـه في قالـب خـاصّ محـدّد، فمثـلًا المفاهيـم السـابقة الذكـر (العلـم والرحمـة والمغفـرة)، كلّمـا ذكـرت وأريـد بيـان قدرهـا وقيمتهـا عـبّر عنهـا بالوسـعة فقـط، ولـم يسـتعمل مفهومًـا آخـر للتعبـير عـن مقدراهـا، وهـذا إنّمـا يشـير إلى التناسـق والانسـجام الكبـير الذي يتمتّـع بـه النـصّ القـرآني.

ثالثًا: الاستعارة البنيوية

كمـا قلنـا سـابقًا فـإنّ الاسـتعارة البنيويـة تسـمح باسـتخدام مفهـوم منظّـم للغايـة ومُحـدّد بوضـوح لبنـاء مفهـوم آخـر، والتعبـير عـن مفاهيـم بتفصيـل كبـير، وإيجـاد الوسـائل المناسـبة لإبـراز بعـض جوانبهـا وإخفـاء بعضهـا الآخـر. وقـد تنـاول القـرآن أمثلـةً جمّـةً لهـذا النـوع مـن الاسـتعارة المفهوميـة؛ وكمثـال لهـا قـوله تعـالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [سـورة الأنعـام: 122].

يـرى السـيّد الطباطبـائي أنّ المـوت في هـذه الآيـة اسـتُعير للدلالـة على الضـلال، والحياة اسـتعيرت للدلالـة على الإيمـان، والإحيـاء للهدايـة وللإيمـان، واسـتعير النـور للعلـم والتبـصّر بالأعمـال الصالحـة، والظلمـة هي الجهـل، وكمـا هـو ملاحـظ فإنّـه حسـب اللسـانيات الإدراكيـة هنـاك مجـال مبـدإٍ يتكـوّن مـن: المـوت، والحيـاة، والنـور، والظلمـة، وكلّهـا أمـور مادّيـة ومتجسّـدة كمـا يصطلـح عليـه المعرفيـون، وقـد اسـتعمل القـرآن هـذه الأمـور للتعبـير عـن مجـال هـدف وهـو أمـور غـير متجسّـدة هي: الضـلال، والإيمـان، والعلـم والجهـل، وهـذا كلّـه حسـب رأي السـيّد الطباطبـائي الذي يقـول: «في مسـتوى التفهيـم والتفهّـم العموميـين؛ لمّـا أنّ أهـل هـذا الظـرف لا يـرون للإنسـان ـ بمـا هـو إنسـان ـ حيـاةً وراء الحيـاة الحيوانيـة الـتي هي المنشـأ للشـعور باللذائـذ المادّيـة والحركـة الإراديـة نحوهـا» [الطباطبـائي، الميـزان في تفسـير القـرآن، ج 7، ص 337]. هـذا مفـاد الاسـتعارة المفهوميـة عنـد عمـوم النـاس الذيـن لا يفهمـون ولا يعـون إلّا في إطـار قوالـب حسّـية مادّيـة.

ويمكن عدّ الاستعارة هنا بنيويةً، من جهة أنّ مفاهيم المجال المبدإ ومفاهيم المجال المقصد تتقابل وتتشابه من جهات عدّة، وتشترك في تفاصيل غنيّة، وكذلك يفتقر كلاهما إلى التفاصيل نفسها، فإذا أخذنا تقابل العلم والجهل في طرف والنور والظلمة في الطرف الآخر، نرى أنّه كما أنّ النور يضيء لنا المسير والطريق ويسهّل علينا بذلك اختيار الطريق الأصحّ نحو المقصد، وتمييزه عن الطريق الخاطئ، كما يكون التنقّل نحو المقصد أسهل وأسرع، وفي الظلمة يحدث العكس فيصعب علينا رؤية الطريق، بل وربّما قد نظلّ الطريق ونأخذ الطريق الخاطئ، ويكون التنقّل فيه صعبًا وبطيئًا ومحفوفًا بالمخاطر، فإنّ العلم كذلك كالنور يمكّننا من كشف الكثير من القضايا والتصوّرات وتمييز الصائب من المغلوط منها، ويسهّل علينا بذلك اختيار الأنسب والأقصر نحو الحقيقة، أمّا الجهل فلا، ففي ظلّه يصعب على الإنسان درك الكثير من التصوّرات وفهم الكثير من القضايا، ويختلط عليه الصحيح منها والخاطئ، فيصبح مسيره مضطربًا، ويصعب عليه الوصول إلى الحقيقة، بل قد لا يتوصّل إليها أبدًا، هذه فقط بعض الجزئيات والتفاصيل التي يمكن أن نحدّدها لهذه المفاهيم، وهناك الكثير منها إذا دقّقنا أكثر.

إذن فحسب رأي السيّد الطباطبائي هذه استعارة حسب الفهم العامّي البسيط الذي يتعامل وفق الأمور المادّية، ولكنّ الأمر لا يتوقّف عند هذا الحدّ، بل إنّه وفق المباني الإسلامية كما ورد في الروايات من أنّ للقرآن بطونًا متراتبةً طوليًّا، وأنّه يحتوي على العبارات والإشارات واللطائف والحقائق كما جاء في الرواية الشريفة، وهي مراتب لفهم القرآن. [انظر: المجلسي، بحار الأنوار، ج 75، ص 278] يرى العلّامة أنّ في مقابل هذا الفهم فهمًا آخر أكثر دقّةً، ومعنًى آخر غير هذا المعنى العامّي، فالإنسان المؤمن الإلهي يحيا في ظلّ هداية الله ﷻ، بالإضافة إلى حياته المادّية، مرتبةً أخرى من الحياة أسمى من هذه الحياة، وهي حياة خالدة لا تنقطع بالموت الدنيوي المادّي، وهي الحياة الحقيقية الطيّبة مقابل مطلق الحياة، حياة تحت ولاية الله محفوظ بكلاءته [انظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 7، ص 337]، والعكس بالنسبة للإنسان الضالّ؛ فهو ميّت ميتةً حقيقيةً أشدّ وحشةً من وحشة الموت المادّي. وكذلك بالنسبة للنور، فمعناه هو الظاهر الذي به كلّ ظهور، والظاهر في نفسه المُظْهِر لغيره [انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 5، ص 240]، والظلمة خلافه، وفي هذا الإطار المفهومي الجديد، ينتفي المجاز والاستعارة المفهومية التي تتشكّل في أذهان العوامّ، ويصبح الحديث عن الموت والحياة والنور والظلمة إشارةً إلى

معانيها الحقيقية، يقول السيّد الطباطبائي: «فتبيّن بذلك أنّ للحياة وكذا للنور حقيقةً في المؤمن واقعيةً، وليس الكلام جاريًا على ذاك التجوّز [الاستعارة] الذي لا يتعدّى مقام العناية اللفظية فما في خاصّة الله من المؤمنين من الصفة الخاصّة بهم أحقّ باسم الحياة ممّا عند عامّة الناس» [الطباطبائي، تفسير الميزان، ج 7، ص 387]. لهذا فالاستعارة ينحصر دورها لتفيهم المعاني غير المادّية لمن لا يسعه إدراكه لفهمها، أمّا من اتّسع إدراكه وتجاوز المستوى المادّي، فإنّ الاستعارة لا يصبح لها معنًى.

مثال آخر قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [سورة الفتح: 10]، ولا شكّ في أنّ اليد معنًى مادّي، إلّا أنّها استعملت لتجسيد معانٍ غير مادّية، وقد ذكر المفسّرون عدّة أوجه منها: القوّة والنصرة، فيصبح المعنى: قوّة الله ونصرته فوق قوّتهم ونصرتهم إيّاك، والنتيجة ثق بنصرة الله لا بنصرتهم، وكذلك قيل إنّه قد يراد باليد العطية والنعمة، أي أنّ نعمة الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم لمبايعتك فوق وأكبر من نعمتهم عليك بالمبايعة، أو نعمته عليهم بالهداية أعظم من نعمتهم عليك بالطاعة [انظر: الطباطبائي، الميزان، ج 18، ص 275]، ويمكن أن نوجد علاقةً بين هذه المعاني واليد، فقوّة الإنسان البدنية مركوزة عادةً في يده، وكثير من الأعمال التي تحتاج إلى قوّة كبيرة إنّما يقوم بها الإنسان بيده، لكنّ استعمالها هنا للدلالة على القوّة تجاوز المعنى المادّي للقوّة، والذي يعنى به القوّة البدنية؛ لتصبح دالّةً على مطلق القوّة في أيّ جانب ومجال، وكثيرًا ما تستعمل اليد في كثير من الثقافات للدلالة على القوّة والنصر، وكذلك بالنسبة للعطاء والسخاء، فإعطاء الشيء لا يتمّ إلّا عن طريق اليد؛ لذلك استعملت اليد للدلالة على هذا المعنى، ولكن حتّى استعمال اليد كقالب مفهومي للدلالة على هذه المعاني يختلف في جزئياته وتلحق بها قرائن أخرى، فاليد عندما تستعمل للعطاء والكرم تلحق بها صفة البسط كقوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [سورة المائدة: 64]، وعندما تستعمل للدلالة على القوّة تضاف إليها قرائن أخرى كالشدّة، والضرب واليمين... كقوله تعالى: ﴿**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**﴾ [سورة الصافّات: 93]، وقوله كذلك: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ [سورة الزمر: 67]، فالمقصود هنا يده اليمنى، ويشير المعنى إلى الجانب القويّ والقدرة كما ذكر بعض المفسّرون [انظر: الطباطبائي، الميزان، ج 17، ص 149 و292]، وهذه الاستعمالات كلّها مركوزة في

ذهـن الإنسـان، وقـد نشـأ وترعـرع على إدراك هـذه المفاهيـم وغيرهـا في إطـار قوالـب مفهوميـة معيّنـة، وهنـاك الكثـير مـن المعـاني الأخـرى الـتي تسـتعمل اليـد بوصفهـا إطـارًا وقالبًـا مفهوميًّـا للدلالـة عليهـا، لا يسـعنا هنـا ذكرهـا جميعًـا ونكتـفي بهـذا القـدر.

خلاصـة القـول أنّ القـرآن يسـتخدم الاسـتعارة المفهوميـة بوصفهـا أحـد مسـتويات التفهيـم القـرآني الموجّهـة للعـوامّ الذيـن يفهمـون مسـتوى العبـارة، وليسـت هي كلّ حقيقـة التفهيـم القرآني.

الخاتمة

تطرّق هذا المقال إلى أحد الفروع اللسانية الحديثة، والذي جاء على إثر الثورة الكبيرة التي شهدها العلم في دراسته للعقل وعملياته المختلفة، ألا وهو اللسانيات الإدراكية، وإلى كيفية الاستفادة من المفاهيم المختلفة لهذا الحقل العلمي في فهم القرآن الكريم، وقد تطرّقنا في البحث إلى النقاط التالية:

أ- تناولنا تاريخًا موجزًا لنشأة علم اللسانيات وتطوّره، ابتداءً من واضع لبناته الأولى في العصر الحديث فرديناند دي سوسور إلى ما هو عليه الآن، ورأينا كيف أنّ دي سوسور نقل اللسانيات نقلةً نوعيةً من الاقتصار على دراسة الألسن بما هي متنوّعة، إلى وظيفة أخرى أهمّ وهي دراسة حقيقة اللغة نفسها، من خلال البحث عن مشتركات الألسن، وقد أطلق على هذه المقاربة "اللسانيات البنيوية".

ب- اللسانيات الإدراكية هي حقل علمي مشترك بين اللسانيات والعلوم الإدراكية، هذا الفرع الذي نشأ في خمسينات القرن الماضي، وأحدث ثورةً في مقاربة مختلف العلوم للعقل وآليات عمله، وقد شمل هذا الحقل المعرفي علومًا مختلفةً من بينها اللسانيات.

ج- تسعى اللسانيات الإدراكية إلى دراسة علاقة اللغة بالفكر، من خلال تحليل اللغة الطبيعية، ودراستها من حيث وظيفتها الإدراكية.

د- تتعامل اللسانيات الإدراكية مع المعنى وفق خصائص أربع، الطبيعة المنظورية والتجسّد، والحيوية والمرونة، والموسوعية وعدم الاستقلالية، وتشكّل المعنى اللغوي وفقًا للاستعمال والتجربة، بل وتجذّره فيها، وما دام المعنى هو محور اللغة، فإنّ اللسانيات الإدراكية تعطي الأولوية لعلم الدلالة في التحليل اللغوي.

هـ- تصنّف المسائل التي تهتمّ بها اللسانيات الإدراكية في محورين:

- النحو الإدراكي: ويدرس الوحدات اللغوية الرمزية التي تحتويها اللغة.

- الدلاليات الإدراكية: وتدرس العلاقات القائمة بين التجربة والإدراك واللغة، وهذا هو المحور الأساسي للّسانيات الإدراكية بحكم أنّ محورها هو المعنى.

و- تعدّ الاستعارة المفهومية أهمّ المفاهيم في اللسانيات الإدراكية، وهي تختلف فيها عن النظرة اللسانية البحتة؛ إذ ينظر إليها في اللسانيات الإدراكية نمطًا من الارتباط المفهومي؛

إذ نعبّر عن أشياء معيّنة ونفهمها في ضوء الإطار المفهومي لأشياء أخرى، ويؤكّد اللسانيون المعرفيون أهمّية الاستعارة وتجاوزها للمستوى اللغوي إلى الفكر والعمل.

ومن خلال هذا توصّلنا إلى نتيجتين أساسيتين:

1ـ هناك سجال حاصل حول شرعية اللسانيات الإدراكية، والإشكال المطروح بأنّه على اعتبار أنّ التفكير المفهومي يرتبط ارتباطًا وثيقًا باللغة تكون كلّ لسانيات إدراكيةً، ويكون وصفها بالإدراكية لغوًا ، وعلى اعتبار خصوصية الظواهر اللغوية، لا يكون أيٌّ منها كذلك، وفي كلتا الحالتين يكون مفهوم اللسانيات الإدراكية غامضًا. إلّا أنّ بعضهم يرى أنّ اللسانيات الادراكية نجحت في تقديم الإضافة التي افتقدتها اللسانيات، إلّا أنّه لا بدّ من مراعاة ضوابط البحث عن الهياكل الكلّية التي تكشف عن ثوابت اللغة، وفي الوقت نفسه تفسير اختلافاتها؛ لكي نتغلّب على تحدّي النسبية اللغوية وتأثير اللغة على الفكر، ممّا ينسف عالمية هذه الهياكل والتخصّص الإدراكي ككلٍّ من جهة، ونتفادى مشكل غرق اللسانيات في الإدراكيات وخلط التخصّصات من جهة أخرى.

2ـ بيّنّا أهمّية الاستفادة من اللسانيات الإدراكية في فهم القرآن الكريم، وهذا من خلال بعض تطبيقات الاستعارة المفهومية بأقسامها المختلفة، ورأينا كيف يستفيد القرآن من معانٍ متجسّدة ليُفهم مفاهيم غير مادّية وغير متجسّدة؛ إذ يتمّ أوّلًا قولبة هذه المفاهيم في إطار كيانات، وتجسيدها في قوالب مادّية؛ ليمكن حينئذٍ تكميمها وإضفاء الصفات الكمّية عليها من الوسعة والثقل والمكان وغيرها. كذلك بيّنّا كيف استفاد القرآن من المجال المبدإ الذي يتكوّن من أمور مادّية ومتجسّدة للتعبير عن المجال الهدف الذي يتكوّن من أمور غير متجسّدة.

وقلنا إنّ دور الاستعارة ينحصر في تفيهم المعاني غير المادّية لمن لا يسعه إدراكه لفهمها، أمّا من اتّسع إدراكه وتجاوز المستوى المادّي، فإنّ الاستعارة لا يصبح لها معنًى.

قائمة المصادر

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1414 هـ.

الأزهر الزناد، نظريات لسانية عرفنية، الدار العربية للعلوم ناشرون ودور أخرى.

بابوش، جعفر، اللسانيات المعرفيةزز قراءة وتقويم في المنتوج المعرفي، مجلّة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية، المجلد الثاني، العدد الثاني، 2020 م.

رزوقي رعد مهدي، إستبرق مجيد علي، التفكير وأنماطه، دار الكتب العلمية، 2018 م.

روبنز، روبرت هنري، موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ترجمة أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الثالثة، 1997 م.

دي سوسور، فردينانـد، علم اللغة العامّ، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، 1985 م.

الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، منشورات إسماعيليان، قمّ، الطبعة الثالثة، 1973 م.

Catherine Fuchs. La linguistique cognitive existe-t-elle?. Quaderns de filologia. Estudis literaris, 2009.

Dirk Geeraerts & Hubert Cuyckens, The Oxford handbook Of Cognitive Linguistics, Oxford University Press, 2007.

Dirk Geeraerts, Cognitive Linguistics _ Basic Readings, Cognitive Grammar: A Basic Introduction Ronald W. Langacker.

Dirk Geeraerts et al., Cognitive Linguistics Basic Readings, Mouton de Gruyter, Berlin, 2006.

Evans, V. Green, M, Cognitive Linguistics: An Introduction, EDINBURGH UNIVERSITY PRESS, 2006.

George Lakoff, Women, Fire, and Dangerous Things, What Categories Reveal about the Mind, Preface.

George Lakoff and Mark Johnsen, Metaphors we live by, The university of Chicago Press, 1980.

Halliday M. A. K., Linguistic studies of text and discourse, V.2 in collected works, Continuum, London, 2002.

HOUDE, olivier, Dictionary of cognitive science, tras. By Vivian Waltz, PSYCHOLOGY PRESS, New York and Hove, 2004.

LAZARD, G., "What are we typologists doing ?". In Z. Frajzyngier & al., Linguistic Diversity and Language Theories, p 1920–, John Benjamins Publishing Company, Amesterdam, 2005.

merriam–webster.com/dictionary/embody

Paul Atkinson H et al., HANDBOOK of ETHNOGRAPHY, SAGE Publications Ltd, London, 2007.

Thagard, Paul, Mind: Introduction to Cognitive Sciences, The MIT Press, Cambridge–Massachusetts, 2nd edition, 2005.

Thagard, Paul, The Cognitive Science of Science: Explanation, Discovery, and Conceptuel change, The MIT Press, Cambridge–Massachusetts, 2012 ed.

VARELA, Francsico, Invitation aux sciences cognitives, Le Seuil, Paris, 1988.